فوزي كريم

مدينة النحاس

مكتبة الفكر الجديد

مدينة النحاس

مكتبة
الفكر
الجديد

من كتب عبير الربيعي

منشورات المدى ٦ الشعر

اسم المؤلف : فوزي كريم
عنوان الكتاب : مدينة النحاس
تاريخ الطبع : ١٩٩٥ / ١٠٠٠ نسخة
التصميم : محمد سعيد الصكار - باريس
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ، ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦ - ٣٣٠٣٩
تلفون ، ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس ، ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد ، ١١ - ٣١٨١ فاكس ، ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366 - 33039

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

مكتبة الفكر الجديد

عبير الربيعي

فوزي كريم

مدينة النحاس

منشورات

٦

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

بـــورتريـــت
(مقدمـــــة)

- ١ -

انظرْ الى وجهي جيداً . انظر الى هاتين العينين ، وهذه التجاعيد ، وهذه الصفرةِ الخالصة . حدقْ جيداً بالشَّعر الاجعد الرمادي الذي يغطي صلعاً حقيقياً . حدق بكل هذا ، وقل لي ما ينبو عنه من النور والعتمة . فأنا بصير بكلا هاتين اشد ما تلم به البصيرة وافجم .

انا كاتبٌ عربي . وجهي ينمّ عن ذلك بكل تأكيد . ولعلك لا تخطىء هذا الكدر الذي لم يخلق لبشرة كانت سوي . ولا هذه الصفرةَ التي تنم عن نشافِ روحي لا حدود له . ولا هاتين العينين الغائرتين اللتين تحدقان لا الى خارج ، بل الى شيء خفي . خفي فاجم على الارجم . والفم المترهل ، وكأن شفتيه قد همتا زمنا طويلا لتقولا شيئا فاصلاً ، شيئا قاطعاً ، ثم ترهلتا يأساً او عجزاً .

انظر الى وجهي جيداً ، وارشف معي هذه الكأس ،لتعطي كلينا مزيدا من القدرة :انا على الكلام وانت على الاصغاء .

مكتبة الفكر الجديد

لا تستشف من كلامي نبرةَ غضب ، ولا تجتهد في ان تجعل مما اقول صوتَ احتجاج وصرخة غضب . تخلَّ عن التزوير الذي تطامنًا عليه ، وحدق في لغة اليأس . ولا تقل لي ان بين لغة اليأس وبين لغة الاحتجاج والرفض صفحةً رقيقة . فأنا اعرف معك هذه اللعبة واعرف اننا شاركنا فيها جميعا ، واننا موهنا كثيرا على انفسنا وعلى قواميس اللغة ومازلنا : ارضاء لسلطان نطمع في بركته ، ولشعب نطمع في غفلته . لان بين لغة اليأس ولغة الاحتجاج والرفض هوة تفصل بين واقعين . ونحن ابناء اليأس نحتج بدافع الخجل ونرفض بدافع الذنب . ثم لا نكتفي بذلك ، بل نعيد اللعبة ، مستمتعين بالتضحية الروحية وقد لفنا رداء بين طياته .

ولدت ، انا ابن المشرق العربي ، في مدينة من طين . ولم تزحمني ، حين كبرت ، الثقافات الانسانية ، وجدتُ بينها وبين الازقة الضيقة واسرار الابواب القديمة ، ما بين الغابة والطائر ، اذ منحتني حرية البصيرة وحرارة المكتشف . وأوعزتُ لنفسي بمئات المشاريع والاف الافكار . وقلت ان هذا المشرق العربي مادة خام ، وان ظلالَ رفارفِ السطوح والشرفات الخشبية المزججة ، وصدأ مرصعات النحاس ، ان اسرار الليل في المواطن غير المأهولة ، واسرار النهار في هذه الاركان المأهولة ، وان الحواسَ وما تنطوي عليه من ضجيج ، وهذا الحوارَ الدائب الذي لا يَخمد ، بين الناس والدواب والاسماك والزواحف والطيور والاشياء جميعا ، والذي يشكل معنى الوحدة التي يطمح اليها الفن . . قلت ان كل هذا كفيل . مع خبرة الثقافات الانسانية . ان يحرر عفريتا من عقاله ، لينطلق حول هذه القباب والمآذن ، وعلى امتداد هذا الجفاف المصوّت عبر الانهر المهجورة ، ساحبا ذيلَه الاسودَ الداكنَ بين الازقة نصف المعتمة ، ماسحا عتبات بيوتها ونثار نفاياتها ومياه مجاريها ذات الرائحة ، ومخلفا ، كمايخلف على الافق دخانَ خياله المجنَّح .

مكتبة الفكر الجديد

في مخيلتي ومخيلة كتابنا في هذا المشرق العربي ، كل ما يطمح اليه كاتب ذو ضمير . وتفننت في انكار طليعية الفن التي شممت فيها رائحة هذلقة ، وبحاسة الحرص على الدم الحالم ، رحت اتمرغ بصنوف عذاب الاجتهاد : الكتابة المحافظة ولكن الجوهرية . الكتابة المشرقية ، الكتابة . . .

اذ ان فكرة المادة الخام زرعتْ في رأسي فكرة التنوع ، ورحت اقلب عيني في ثياب امرأة الجنوب المنبسط ،ابنة الاهوار ، وابنة الشمال الجبلي ، والثياب المزدهرة بربيع الالوان . ثم اخذت قلما وورقة ، ورحت اخطط كل اجتهادات الشارع وما ينم وراءه من اسرار الكائنات التي تنطوي على نفسها ليلا . وفزعت من هذا الاكتشاف المعتم . وصفقت لمخلوقات الشارع : ثوار وشعراء ومغنين . . . ومحدقين في النجوم : ولكل هذا التنوع في فن الكتابة تذكرت فن الرسائل وفن الخطب وفن الامثال وفن السير وفن النقد وفن القصص وفن الشعر وفن انتحاله وفن البند وفن المقامة وفن الانساب وفن الاخبار وفن التاريخ وفن الاسفار الروحية والجغرافية وفن التصوف وفن التراجم وفن المعاجم : معاجم اللغة ومعاجم الاعلام ومعاجم البلدان وفن العبادة وفن الالحاد . . . وفنون الشكل ، اعني تلك التي تكتب للهلوسة والتضرع الى الحروف . ثم جفلت حين رأيت ان كل ذلك ينتمي الى عصر غير هذا العصر . ولكننا من دم واحد . ورأيت ان ما انتمي اليه ، ولكن دمه غير دمي ، هو عنصر الوحدة التي فزعت منه : فلقد كثرت حولي مزالق الطحلب اللزج بفعل الماء الراكد ، وفي كل صوب انظر او اتجه انكفيء على وجهي .

انا عربي ، ابن العسكر . وابي عربي وابن الحياة النيابية الزائفة . والوحدة التي كانت زهرة من البلاستيك على ثياب ابي اصبحت شعارا مطرزا من النحاس والحديد على ثيابي . واذا كان مصدرها القديم ينحدر ، زائفا ، من معنى الاتحاد ، فأن مصدرها الحديث ينحدر من معاني التوحيد والانفراد (وحدة القائد من وحدة الله) . .

مكتبة الفكر الجديد

وقد انعكس هذا على ارض عارية : فاختلف كتابا وكتاباتٍ ، ومنح وحدة القدر مكانا لا يعلو عليه مكان . حتى عجزت عن اختراق كثافة هذا الظل المريع ، وتساءلت عن قدر الكاتب ان يكون : شاعرا ، والا قاصا ، والا ناقدا . وعن قدر المجلات ان تبوب للشعر والقصة والنقد ، وعجبت اين ستوضع مادة تكتب عن الكائنات اللامرئية في المرايا ، ومادة تحصي انفاس المعذبين في الظل وفي المنافي ؟ ثم فزعت اكثر حين عرفت ان تحت هذا سراً من الاسرار ، اسرار التنوع والوحدة ، وان الامر لا يقف عند هذا ، فهناك من ينتصر لهذا الجانب ضد ذاك ، وان هناك جوائز للمنتمين ، وغياهب مجهولة لغير المنتمين ، وعلى الرغم من انني وجدت الصبر على هذا احجى ، الا ان المنتمين من جيلي ، كتاب الشعر والقصة والنقد لم يتركوا فراغا للتأمل بيني وبين وحدة الاتحاد وبيني وبين وحدة التوحيد والانفراد ، فصاروا وسطاء ، ولان وسطاء القائد اقارب الى الطبع ، فقد نصحوا بالبذل ، وكشفوا عن حاجات الدنيا ، وطمعوا النفس الجائعة برفاه الاقامة ورفاه الجسد . فأصبح الحرف على لسان احدهم كأظلاف البعير ، ينبسط ولا يخترق . وبدل ان احاور نفسي صرت احاورهم ، وبدل ان احاورهم صرت اجاريهم .

ولانني احب خمرة كارديننا ، ولا اسمع الا وقع خطواتي ، فقد مددت يدي كالسائر في نومه متجها الى الارصفة ، حانيا على ظلي ، وقد الهبتني رائحة الشواء ، في البيوت والازقة ، وفي عيني ربيع الالوان غير المنسجمة . ولم اعرف ان في كل هذا مُجانبةً للتوحيد وان التنوع زلة على اللسان .

فكم زل لساني اذن ؟

مكتبة الفكر الجديد

- ٣ -

انا ابن هذا الجيل .

هربت بثيابي وعلقتُ ساعةً صدئةً معطلةً على بوابة بيتنا القديم .

ولانني ، وانا افكر بالتجوال ، رأيت كل مشاريع المقاولين . فقد هدمت العمارة القديمة : اسواقٌ وشوارعُ وبيوتٌ ، وحلت مكانها اسواق وشوارع وبيوت اخرى . ولان مدنا وقرى واحياء قد ازيلت لهذا السبب او ذاك ، فقد استعيض عنها بمزيد من الرغبة فيما يثبت ان هذه الازالة وهذا القمع ليسا الا سلوانا للنفس .

وبقيت ضائعا ، مثخنا بجراح من لا ملجأ له ولا مأوى . فلقدْ قلبت المدينة وُقلبت معها الحروف التي هي ظلها ومرآة قيمها . لان العمارة ، على ما ارى ، انما هي القيم وقد استحضرها المجموع ، فاذا ما رأيت اعمدة فانما هي اعمدةُ حكمة ما . او اقواسا فانما هي اقواسٌ روحية ، او منمنماتٍ وزخارفَ فانما هي تجليات .

وعمارةُ المقاولين هي عمارةُ الفرد الزائل .

- ٤ -

انا ابن هذا الجيل ، وكل جيل قادم .

ودعوتي اليك ان تصغي ، وانا اتكلم ، دعوة مفلسة . فنحن لم نحسب حساب الحياة النيابية الزائفة ، ولا ثورة العسكر . ولم نصغ الى الدوي في هوة تفصل بين لغة اليأس ولغة الاحتجاج ، ولا المصائر التي يمكن ان تترتب على هذا الواحد وذلك التنوع . فالواحد قدَرُنا ، نتحرك داخل دائرة ظله ، لا نتجاوزها . دائرة نحببها الى انفسنا كل يوم ، وكل لحظة ، ونعيمنا في راحتيه . وعلى بابه نفضل الوقوفَ ، على ان لانقف على النفس .

مكتبة الفكر الجديد

ولانهم دعوني للوقوف معهم الى جانب الحاجب ، منتظرين ، وقد اظهروا مفاتنَ سعادتهم القصوى ، ولانني فضلت على ذلك ان اقف على نفسي ، غير معافى ، ولا رشاد لي . . . .

ولانهم اقاموا للثورة كرنفال الجثث ، واحاطوا مراسيمها بالاشباح . ولانهم كتبوا الشعر على شرف من لا شرف لهم ، ووسموه بعار المرحلة . ولانهم اعطوا ظهورهم للضحايا والمهجرين . ولانهم لوحوا لمربيتي بالتهديد ولساني بالعُجمة ، وشكوكي باليقين .

ولانهم اصحاب العمل ، وقد اقتصر الشرف عليه . ولان ارواحهم ، وقد اوقفوها على الواحد ، تراتيل دامية .

ولان روح الجماعة في العمران ، وقد استحوذ عليها المقاول ، الى زوال .

ولان الماضي الذي لا حدود له اصبح في قبضة الدولة ، والحاضر تحديق مرير في الآتي .

ولان الجوقة على ما أرى وقد استشرى فساد الضمير الى هذا الحد ، في لغة الشعر ولغة الوثائق

ولان الفقراء ، وقد اخذتهم الدهشة ، يحدقون مزيدا من التحديق وهم يحصون ايامهم على الحيطان .

لم اجد بديلا من ان اخاطبك ، وقد حل بيننا الكأس ، وتصغي الي !

1983/1

مكتبة الفكر الجديد

الباب الأول

الخـــروج

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

مدينة النحاس

In Books lies the soul of the whole Past Time; the articulate audible voice of the past, when the body and material substance of it has altogether vanished like a dream
T. Carlyle
The Hero as Man of letters

- ١ -

توقفتُ ، وأنا اتصفح كتاب « مروج الذهب » للمسعودي ، عند حديث « مدينة النحاس » . . « وانها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سلجماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته الى المغرب . وانها مغلقة الابواب وان الصاعدَ اليها إذا اشرف على الحائط صفّق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر » . ووجدتني استعيد الصفحة التي ورد بها الخبر كلما وقعت على كتاب « المروج » بين صفوف كتبي المركومة في الصندوق الخشبي . وما أثار دهشتي حقاً ان ورود الخبر دون اشارات وشروح في الهامش قد خلف لدي شيئاً من خيبة الامل والمرارة حتى لكأن هذه المدينة العجيبة قد وجدت صدى في نفسي .

مكتبة الفكر الجديد

كان عهد كتاب « المروج » بالتحقيق قديما . اذ ان الوقت الذي توفر للسيد ديرمبورغ عام 1852 بعد انتهائه من الجهد المبالغ به في فهرسة مخطوطات المكتبة الامبراطورية في باريس لم يكن وحده ليتسع لاتمام تحقيق هذا الكتاب لولا جهود السيد باربيه دي مينار الذي اتمه في تسعة مجلدات . كنت اعرف هذه الحقيقة وانا اتصفح النسخة غير المعتمدة والتجارية التي شاعت مثيلاتها هذه الايام ، ولانني لم أوفر جهداً للبحث عن نسخة محققة في سوق السراي القديم وفي المكتبات العامة ، ولأن هذا الجهد لم يُكتبْ له النجاح فقد عزز فشلي هذا رغبةً لا مرد لها في اضافة هامش مفقود في النسخة التي بين يدي عن مدينة النحاس هذه . واخذت للتو ورقة وقلماً وكتبت رسالة استفهامية الى الباحث المحقق الذي لم يصرح بأسمه . ووضعت على الغلاف عنواناً ورد في آخر المطبوع يقع في القاهرة القديمة ودسست الرسالة في صندوق البريد كمن يهم بالخطوة الاولى في مسيرة عسيرة .

وانتظرت بنفاد صبر ، أسابيع وشهوراً دون ان أحصل على اجابة ما ، بالرغم من ان هذا كان في الحسبان . فرسالتي ضرب من العبث وذاك العنوان لم يكن الا بدعة لا صحة لها .

نسيت مدينة النحاس كما نسيت « كتاب المروج » لسنوات عدة . ولانني لم انقطع عن مطالعة النصوص القديمة والكتب القديمة ، وهي رغبة ولدت معي على ما يبدو . ولأنني شديد الولع باصطياد الطبعات النادرة بصورة خاصة ، فقد وقعت بين يدي نسخة بطبعة حجرية من « مروج الذهب » طبعت في اصفهان . ومن اعجب ما وقع لي وانا ابحث متلهفاً عن نص مدينة النحاس بين السطور انني وجدت الخبر قد اتلف برمته مخلفاً شتاتاً من الحروف هنا وهناك . اوقفني هذا الامر كثيراً ، واضفى في داخلي على الخبر بعداً جديداً .

مكتبة الفكر الجديد

كنت ببغداد آنذاك ، انعم برغبة عجيبة في التنقيب والبحث وكان هذا التنقيب وهذا البحث مقتصرين بصورة استثنائية على الورق . وكأنهما شذبا حيوية الشباب فيَّ ومنحا لبقايا الكائن فرصةَ التنقيب الوحيدة هذه لا يتجاوزها . حتى انني - ان اردت الحق - لم اكن لأتجاوز في تجوالي زقاقَ محلتي الصغيرة حيث مقهى «عليّان» في نهايته . فالعيون هناك ترقبني كما ترقب ضالاً ابتعد سهواً عن ركنه الدافئ . ولم تكن مراقبتها تخلو ، حتى في اكثر لحظاتها تعاطفاً ، من تلك الومضة الانكارية الجافية .

كنت أقرأ كتبي ، عادة في غرفة الضيوف المقفلة ابداً . كان يحلو لي هناك ان أراكم حولي جميع الكتب والاوراق محتفظاً بهيئتي المسرحية في الركن شأن الراهب في معبده .

كان لغرفة الضيوف هذه شبّاك وحيدٌ يطل على شارع يفصل بيتنا وبيوتَ الجيران عن حقل نخيل واسع تتقاسمه مزرعة صغيرة للباذنجان وبيت « علوان الهندية » المتواضع وبيوت اهالي منطقة « البيرمانية » المجاورة . وجميعنا نحن : البيوت والشارع وحقل النخيل نشكل هامشاً متواضعاً منسياً على نهر دجلة في جانب الكرخ . وكلا التواضع والنسيان قد اضفى مسحة من الخيال على قدرات اهالي محلتي هذه ، وعلى قدراتي الشخصية انا . فهم ، كما تعرفت على هذا منذ طفولتي ، لا يتنادون باسمائهم بل يختلقون بعضهم لبعض القاباً عجيبة فيها الكثير من الظرف وخفة الدم والقسوة الجارحة احياناً . فبينهم تجد من طوى النسيان اسمه الحقيقي ولم يتبق له الا لقب يطيقه مرغماً ولا حيلة له . فكم تتراءى لي - وانا استعيدها الآن كمخلوقات عزيزة - وجوه قَنبر ، أبو عُلُص ، عُكّي ، علي شِجَر ، علي المثوي ، عليّان ، يوسف فسنفسْ ، عُبيد شقاوه ، حكّولي ، بغروره ، صالح عُكْره ،

مكتبة الفكر الجديد

حمزة فُنفُن ، عَكّار ، عَفَي ، جواد اللُكوش ، كسكين ، عادل فتيله ، خروشيف ابو صماخ ، أموري كُسْ ، عظومي جُحر ، فوزي غراب ، عباس قَماقه ، عبّود الاسود ، صالح الاطرش ، حمزه الاخرس ، صالح خُقْنه ، علي نَنْ ، طيزان ، عادل تنفُّس ، حسين عنبكي ، صادق لَكْرَع ، نوري لَكْرَط ، دَللي ، بابل ، ابو عروك ، خَندش ، ستّوت ، حسين هللوس ، هادي عربيد ، عبدون ، حمزه بَقْبق ، حمزه الثوري ، عجّوم ، فالح خُصْوه ، طرّوزه .

ومسحة الخيال التي أُضفيت على قدراتي انا لم تكن لتختلف عن مسحة خيالهم بالدرجة بل بالنوع . ففيما كان خيالهم واقعياً يقتسمون مادته معاً ، كان واقعي خيالياً لا يشاركني فيه أحد . وكان هذا مبعث أسىً عميق لا مدىً لنهايته .

ولكن كل هذا لم يكتب له الدوام . حرمت من التأمل في النخل ، فقد وضعت امي ستارة بنية اللون غامقة على شباك غرفة الضيوف الوحيد . وحين ادفع الستارة جانباً تفاجئني معظم الاحيان عيون متطلعة . وحرمت من الجلوس انا وكتابي في مقهى «عليان» فقد قال لي صديق قريب ان اتجنب التّماس مع الآخرين . والمقهى مُلتقى الآخرين . واخبار اوراقي وكتبي اصبحت شائعة . فقد شاءت الظروفُ العجيبةُ خارجَ صومعتي الصغيرة ان اقع ، انا الاعزل ،في الوشاية ، فصارت بابنا تطرق اكثر من مرة في الاسبوع أو حتى في اليوم الواحد . وكانت امي دائماً تهرع الي بوجهها الشاحب المسكين ملقية على كاهلي يديها الناحلتين ، مولولة «ستحرقنا الكتب يوماً . ستحرقك وتحرقنا . اللهم الستر والعافية . . » . وكنت انا الآخر غير مطمئن وقد انتابتني المخاوف التي لا مرد لها . فمحلتنا الصغيرة لم تعد منسية . وتخلت عن عزلتها دون مقاومة . والشبان الذين كانوا

مكتبة الفكر الجديد

يتنابزون بالالقاب جفلت مخيلتهم واستيقظوا على دور جديد لا عهد لهم به . دور مسؤول يحيط معرفة مرتابةً بالشوارع الاربعة التي تشتمل عليها المحلة وبالبيوت التي لا تتجاوز المئة . يرصد حركاتها وانفاسها ليمنحها طعماً مسؤولا في بناء حياة جديدة . بناء سلطة جديدة لكل فرد دور ظاهر فيها . ظاهر غير خاف . وقد بدأت نخبة من هؤلاء الشبان تتساءل عن دوري انا !!

ان البحث عن « مدينة النحاس » في النسخة التي بين يدي وفي النسخ التي توهمتها متوفرة في مكتبة المتحف الهزيلة او في مكتبة الخلاني ، قد جعلت كل امكانية للتخلي عن الكتب ، في احراقها أو دفنها مستحيلة بالمرة ، ولعل الاكثر استحالة هو ان احاول اقناع هؤلاء الشبان ، ممثلي سلطة الحياة الجديدة ، بمهمتي التي لا تشكل اي معنى من معاني المعرفة المألوفة والتي قد يرتاب في امرها أولو الأمر أو يحسبوا لها حساباً خاصاً .

انني اعرف انه بحثٌ عابث . وانه محدود برغبة محض شخصية . وان هذه المدينة التي لم تأخذ من «مروج الذهب» الا حيزاً صغيراً لم تكن الا وليدة مخيلة كاتب كثير الاسفار ومحض حلم . ولكن الأمر ليس على هذا القدر من البساطة على ما يبدو . فالكتب التي بين يدي وعزلتي المنقطعة معها تكفي وحدها لحرماني كلية من اي حق في الدفاع عن النفس . فالحماس العاصف الذي يطوي هؤلاء لا يسمح بالاستثناء او برعاية الرغبات العزلاء ، خاصة اذا كانت على هذا المستوى من الغموض والاغلاق . وانا بدوري لا احسن تبرير رغبتي في البحث والتنقيب . وكنت اكثر حذراً في تعيين موضوع بحثي وتنقيبي ، لانني على يقين بان « مدينة النحاس » هذه ، هذا الشغف الصبياني كفيل بايداعي في« قصر النهاية » . . . الى الأبد .

مكتبة الفكر الجديد

في الايام التالية قررت ان اغادر هذا البلد . لانني كنت اعرف استحالة التوفيق بين عبثي الخاص وهذا النظام الابله للاشياء والافكار . لقد نسيت ، يوم استحوذت علي هذه الفكرة ، كل كتبي وأوراقي . ولم اشغل روحي اللانبة الا بهذا الكائن الرقيق الذي كنت اقف الى جانبه . فقد كانت امي ، آنذاك ، بالرغم من قلقها ودموعها شديدة الحماس لفكرة مغادرتي . كانت تحثني على الاسراع بيدين متشبثتين « محروس . . ابني » .

في يوم السفر الذي كان شديد التكتم والسرية احتفظت بالطبعة الحجرية من « مروج الذهب » بين طيات الثياب في الحقيبة ، وكأنني أودع دواء للطوارئ . وغادرت المنزل فجراً .

مكتبة الفكر الجديد

- ٢ -

طوى النسيان مدينة النحاس تماماً . ففي غرفة استأجرتها على مشارف باريس استسلمت كلياً لصمت وسلام عميقين تحت رعاية شابة ايطالية تعرفت عليها في مطعم صغير . كنا نعمل معاً في غسل الصحون واعداد السلطة . ثم ، وهي التي ظننتني ايطاليا في الوهلة الاولى ، استدرجنا الجهد المشترك الى تبادل الاهات الصغيرة والهموم الصغيرة والآلام الصغيرة ثم الاتفاق على السكن معاً في غرفة بعيدة .

احتللنا غرفة واسعة من بيت عائلة مغربية متوسطة الحال تعيش في رقعة تشبه الريف . يطل شباك الغرفة على حديقة خلفية واسعة وعلى امتداد منبسط لحقل كثير التضاريس . ولكن في الامسية الاولى من تبادل العواطف الصامتة كنت اجرجر خطواتي خلف الصديقة الايطالية ، بعد تناولنا العشاء ، الى غرفتها في بناية سكنية مجاورة . داخل الغرفة التي تضم سريراً مفرداً وكرسياً في الجوار وجهاز تلفزيون ، دعتني الى الجلوس على الكرسي فيما القت نفسها على سريرها متهالكة . دقائق من الصمت ثم سألتني دون ان تستدير اليّ اذا ما

مكتبة الفكر الجديد

كنت أرغب في الاستلقاء أنا الآخر الى جوارها . فالسرير رغم ضيقه يتسع لمخلوقين بائسين . قلت لها لا تبالي سنيورا . ولكن يدها المنبسطة باتجاهي وضحكتها الهامسة لم تتركا للرغبة الحبيسة فرصة للتردد . نزعت حذائي وتدحرجت الى جانبها . قبلت كتفها العاري ثم القيت احد فخذي على حوضها كمن يتقلب في نومه . اشعرني البنطلون الجنز الذي البسه بالحرج . نظرت الى عينيها علني استشف ما يحفز لديَّ الجرأة على التصرف العفوي . كانتا مغمضتين . فتحت ازرار البنطلون ثم القيت به بعيداً على الكرسي .

لم أقل لها انهاالمرة الاولى التي امارس الجنس فيها بكل هذه الحرية مع امرأة بكل هذه العفوية وهذا الجمال . ولكنها ، كما احسب ، استشفت كل هذا من لمستي المترددة ، من هستيريا حركتي الفزعة ، وانا اقبض على نهديها أو انصرف كالسارق الى مابين فخذيها ، ومن انطفاءتي العاجلة . احتضنت رأسي وضمته الى صدرها ، فأيقظت بي طفولة من سبات طويل استعدتُ بها لمساتِ امي البعيدة . ولكنني لشد ما شعرت بالخجل والمرارة فاعتصرتها انا الآخر وكأنني ابادلها حنواً بحنو ، ولكن يقيني غير المتردد بسعة روحها وعطفها أضفى علي في تلك اللحظة شعوراً بالسعادة وكأنني القي حجراً في بئر صحراوي فأسمع صدى مياه
هناك .

الماضي حساسية مفرطة . مستعد أبداً لتعزيز حضوره الحاسم كاستدارة كلية لا يشكل الحاضر او المستقبل فيها الا خطوات مترددة في نقاط التماس . وهو لفرط حساسيته سرعان ما تخذله الغفلة او النسيان . أو تُمرضه النيةُ الفاسدة ، نيةُ الانكار والتشويه أو الالغاء . حينها يتحول الى اخطبوط سرطاني خفي اكثر استعداداً لتعزيز حضوره

مكتبة الفكر الجديد

لتعزيز حضوره ولكن كقوة سالبة هذه المرة ، تُعفِّن مياه الحياة في العروق وتمتصُ رحيق ازهارها .

ولهذا تبدو كل الاناشيد والشعارات للمستقبل . وهي تتضمن امراً للحجْر على الذاكرة واعتقال الالتفاتة الحانية الى الوراء . شاحبة ومتقطعة الانفاس . لأن تحت سطحها الفورمايكي يجثم ذلك السرطان ، جثوم الموتى مستغرقاً بامتصاص كل معنى من اشكالها الفارهة .

ان سطوةَ الاحتلال ،

سطوةَ الفرد الزائل ،

سطوةَ الحرب ، تجرد حاضرَ الناس من ماضيها وتشحنه بالمستقبل . ولكن روحَ هذا الماضي كله ، صوتَه الذي يشفَ واضحاً يمتد في كتاب من الكتب . في نص من النصوص ، حيث يتلاشى فيه الجسد وجوهره المادي جميعاً مثل الحلم .

كنت استرجع كلَّ تفاصيل مغادرتي المنزل في ذلك الفجر نصف المضاء . امي المولولة ، وحقيبتي المثيرة للشفقة ، والنخيل المتعامد امام منزلنا وقد شغلت الوثباتُ الرقيقة للاشباح المتخفية سعفاته السوداءَ تلك .

اشعرتني النظرة الاليفة للفتاة الايطالية بالذنب . فأنا لم املأْ بعد الهوة التي بيننا بالضوء . لم اكشف عن حقيبتي الخاصة واعرفها على محتوياتها . فلي ، وهذا ليس استثناء ، ماض مكتنز وهوية نازفة . هي الاخرى لها ماضيها . ولكن هل تملكها الشعورُ بالذنب وهي تنظر الي !!

قلت للشاب الذي اختطف من يدي كيس النيلون : « انها كتب استعرتها . ارجوك برفق » . قال وكأنه يحدث مخلوقاً آخر الى جانبه : « لا أوراق اذن . لا كتابات جديدة هذه الايام . انا شخصياً

مكتبة الفكر الجديد

لدي رغبة في الاطلاع على ما تكتبه . الفأر الذي يختلي باوراقه في ركنه المعتم لا بد ان يكون قد سَودَ الكثير من الاسطر . انا شخصياً حاولت مرات عديدة ان اكتب الشعر مثلا » ثم اعطاني الكيس والتفت الي بوجه مليء بالنوايا الغامضة : « لمن تكتب ؟!» . « اكتب بحثا للا أحد » . استدار بوجهه ثانيةً الى جانب وقال بصوت خفيض :« من يكتب للا أحد لا فضل له على أحد » . كم افزعتني صياغته المتأنية !! ثم اكمل وهو يحدق في عيني هذه المرة « هذه الارض . هذا الوطن له فضل على كل أحد . على كل مخلوق يدب تحت أفقه ويتنفس هواءه . كل أحد مدين لهذا الوطن . بالهواء الذي يتنفس والماء الذي يشرب والطعام الذي يأكل والثياب التي يلبس والامل الذي يحلم به والكبرياء التي يتبجح بها والكرامة التي يستظل تحت فينها والشمس والتراب والشجر . اين الاعتراف بالجميل فيما تكتب ، والمكافأة التي ينتظرها هذا الشامخ ابداً!» ثم رفع يده اليمنى كمن يشير الى جبل على يمينه ، ولعل الذهول هو الذي جعلني استدير برأسي انا الآ خر حيث يشير ، وقد اثرت بهذا الفعل الابله ضحكة مكتومة لدى البعض ممن احاطوا الشاب بدافع الحماس وحده . « الثورة التي لم تلهمك الكتابة علمتنا الفعل . علمتنا المستقبل» . وقبل ان يهم بالانصراف التفت الي ثانية « ستصلك قسيمة الانتماء . انها امتحان دون شك . ولك ان تفعل بها ما تشاء » .

قالت الفتاة الايطالية : « ماذا ؟!» .

التفت اليها ، وكأنني اسمع صدى مياه البئر ثانية ، متمتما من شفتين يابستين « لا شئ . . » ثم استعدت احضانها فزعاً .

استعدت مدينة النحاس فجأة . جاءت مثقلةً هذه المرة بمعان لم آلفها فيها . فهي لم تعد مادة على الورق تنتظر من يملأ فراغاتها ويمنحها الصورة الاخيرة ، بل اصبحت على اكثر اشكالها كمالاً . وشغلت حيزاً

مكتبة الفكر الجديد

لا يتزعزع ولكن في ماضيّ انا . اصبحت حين التفت الى الوراء اجدها على امتداد بصري وقد استحوذت على الكوكبة غير المستقرة التي هي ذاكرتي . مدينة النحاس والقدر الذي يحيط بالصاعد اليها ان يصفق وان يرمي بنفسه فلا يرجع آخر الدهر .

حدث هذا مباشرة بعد زيارتي للمكتبة الاهلية بباريس .

كانت بواباتها تنطوي على جلال روماني شديد المهابة ، فهي بهذا لم تعزز لدي فكرة البحث حسب بل اعطتها طابعاً جدياً وخطورة جعلت خطواتي على السلم الحجري ، بطيئة ومترددة .

في القاعة الصغيرة ، قاعة الفهارس ، احاطتني رائحة الخشب القديم والورق القديم . رائحة كثيفة اثقلت علي انفاسي ومنحتني قدراً من عتمة الخيال لا يقاوم حتى لكأنني سمعت صدى لخطواتي على السلم الحجري بطيئة ومترددة ، تقتحم باب غرفة الفهارس وتلتحق بي . اعطيت للرجل ذي الابتسامة الهادئة المستسلمة قسيمة برقمي المخطوطتين اللتين عثرت عليهما : 714 ، مسيو رينو ، مصدرها القسطنطينية . 832 ورقة . و598 ، مصدرها صفد من اعمال فلسطين .137ورقة . وقلت :«واحدة تكفي اذا وجدت مشقة في توفير المخطوطتين» . ولم يكن استدراكي هذا الا بدافع الحرج من ابتسامته الثابتة . فوجود المخطوطتين اضفى على همتي حرارة مزيدة وحمى . بعد فترة وجيزة جاء الرجل يدفع عربة صغيرة وقد استقرت عليها مجموعة من المجلدات السوداء . وضعها بين يدي كمن يسلمني نذيراً شخصياً او بياناً بقرار الحكم .

اندفعت ، قبل ان تلمس مؤخرتي مقعد الكرسي ، بتقليب الاوراق الثقيلة« لكتاب المروج» وكأنني على موعد مع ورقة بعينها اعرفها

مكتبة الفكر الجديد

معرفة قلبية . وقعت على الكرسي فاغر الفم امام نصف صفحة بيضاء تماماً الا من بضعة مخلفات لكلمات لا تبين . دفعت المجلد جانباً وقد ابقيته على حاله مفتوحاً ، ثم سحبت ، لاهثاً ، المجلد الاول من النسخة الاخرى ورحت اقلب ، وقد ازدادت رائحة الخشب القديم والورق القديم كثافة ، فرأيت نصف الصفحة ذاتها بيضاء وقد عبثت بها يد جانية عبثا لا رحمة فيه . وقاربت الصفحتين من النسختين المتجاورتين فكانت اليد العابثة واحدة وبقايا الحروف المتبقية تكاد تكون كذلك .

لم اجد اثراً لمدينة النحاس . وكأن صداها المتردد قد طويته مع صدى خطواتي على السلم الحجري للمكتبة الاهلية وأودعتها بين طيات تينك المخطوطتين .

رجعت الى غرفتي محموماً كثيرالوسواس وارتميت وحدي على السرير محتضناً آثار الدفء التي خلفتها فتاتي الايطالية منذ فترة ليست طويلة على ما يبدو .

استيقظت وقد حل الليل . وكانت فتاتي ، وهي تراقبني بصمت ، متكورة في حضن الكرسي . فلم أقل لها ما حصل . ولم تسألني هي بدورها عن نتائج بحثي . منذ ذلك اليوم اصبح الصمت ثقيلاً بيننا . واصبحت مدينة النحاس تحيط بماضيَّ كله ، وبذاكرتي كلها .

لندن 1987

مكتبة الفكر الجديد

الدعوة

- ١ -

استرجع بيسر ذلك الوداع الخاطف . فمن بين يديك ، دون ان التفت ، مرقت . وكمن يقطع منحدراً وجدتني عند استدارة الصالحية في الكرخ حيث تقف حافلات السفر . ومن هناك تم كل شيء بأيسر مما كنت اتوقع .

دارت الحافلة صباحاً حول الساحة الصغيرة . وانا ارقب الكراسي على الارصفة امام المقاهي نصف المغلقة ، المعرضة لشمس الصباح ، انصت لصوت المكيفات الهوائية وهي تملأ الفجوات المفرغة من الحياة ، داخل الشاحنة ، ببرودة رطبة تبعث النعاس من جديد في الجسد .

لن انام حتى نغادر «الرطبة» . الصحارى البيضاء يصلصل فيها الرمل الجاف وعلى امتداده يستقيم السراب عمودياً حتى ليختلط بالأفق .

بعد ساعات ، احسب انها تجاوزت النهار كله ، صحوت والحافلة ما تزال في طريقها الصحراوي . ولعل البرد هو الذي ايقظني عنوة ، لانني سرعان ما غفوت ثانية بعد ان طويت قدمي المتجلدتين تحتي .

مكتبة الفكر الجديد

في تلك اللحظات النادرة التي تخطر عادة في نوم طويل ، اللحظات التي تفلت من قبضة تعاسة استثنائية ، لتخترق حجاباً من الحجب او ذكرى يوم مجهول من الايام ، في تلك اللحظات ، وبفعل اهتزاز الحافلة ، رأيت الوجه الشاحب الجميل ، وجه السيدة الملطخ بالاصباغ ، يبدو ، مع عنف رائحة الالوان والبشرة المعروقة ، كما لو كان لعبة اطفال متسخة . او كرة مطاط مدعوكة بفاكهة فاسدة . رأيته بأبتسامته الشاحبة الملائكية ، ينتصب هادئا ، كما لو كان على طبق ، وقد استسلم لحزن دفين . هو حزن من ارتمى كلياً ، بحكم وازع اكثر من ديني ، بين يدي الشيطان .

استيقظت فزعاً .

- ٢ -

سيدي

هل أحدثك عن التفصيلات الصغيرة التي ألمت بي قبل ان اقطع آخر الحبال لانفلت مهجوراً الى المنفى! انت الذي كنت على علم ضئيل بأطرافها الكابية . هل يروق لك ذلك!

ان استرجاع الأسى تطهير للنفس . هذا ما انتهت اليه خبرة الكائن ، موثّقةً بقصة الضحية التي يمثلها شخصي المسكين . لا بد انك تذكر تلك العودة المشؤومة من «الدعوة» . كنت مبلبلاً مثلي . لانك لم تفهم ما كان متخفياً وراء الصورة الجانحة للخيال : صورتي أنا . حيث استقبلتني وقد تلبّست نَفسَ الهيئةِ الضارية التي كانت لدي . هيئة الكائن وقد سُحبت منه ، بفعل برق خاطف ، كلَّ قواه العقلية . صارخاً بي : « لا تقل شيئاً » .

مكتبة الفكر الجديد

وبقيتُ أنا صامتاً . وما زلتُ استعيد طعم اللعاب المرصي الم، ا ،ما على فتحة فمي .

لم أجبك . مستسلماً لهذه الفرضية الواهية بأنك تكاد تفهم كل شيء . فهل كنت حينها تفهم مبعث الرضا هذا ؟!

ذهبت الى « الدعوة » دونك . لانك لم تكن راغباً في« فقدان العقل» . كان يحلو لك دائماً ان تسمي مثل هذه اللقاءات ‹«مسرات فقدان العقل» ، مشيراً بطرف خفي الى ما يعنيني من هذه المسرات . ولكنك كنت ذلك اليوم على صواب تماماً . فقد بلغت مسرة فقدان العقل أوَجَها . وكم كنت أحسدك ، حينها ، بسبب ترفّعك . ذلك الحسد الذي يتضمن كراهية لا تصدر الا عن مخلوق ضعيف عاجز . كراهية تنطوي ، بصورة فريدة ، على كل معاني احتقار النفس .

- ٣ -

دخلت غرفةً مضاءة . واخترت زاوية استطيع منها ان أُشرف بيسر على التفاصيل .

لم يصل أحد قبلي .

ركام من الستائر الخشنة والوسائد المطرزة والافرشة . حتى لكأنك تدخل ثوباً مخرماً فضفاضاً . على انها تنم ، بالاضافة الى الاستغراق الكلي في ما هو محلي ، عن اسفار كثيرة . فهي بتنوعها وتنافرها تضفي على المكان ضرباً من الاستعلاء .

طرز من الوسائد مشرقية بألوان ميتة ، لها شراشب تنم عن أصالة وقِدَم ، تحيط بها ، وتزدحم ما بينها ، قطع حريرية شديدة النعومة

مكتبة الفكر الجديد

والرقة تثير الرغبات الماجنة . وعلى هذه التكوينات كلها يتوزع زغب من الصوف ليكون مصدر هلام ضائع في حقل هواء ، ضربت عليه تلك التشكيلات سكينة مميتة . حتى لكأن عانساً عجوزاً قد تفرغت ، بحكم انكسار متأصل ، لخيوط الصوف الملونة ، دؤوبة على ان تكسو بها عاراً ما على قدر كبير من العناية والرقة .

على منضدة قرب الباب- باب الغرفة المغلق- انتصب جرذ اسود من مطاط أو عاج . من هذا المطاط أو العاج منحوتات على هيئة مخلوقات نصف آدمية لعصور ومواطن مجهولة . ولقد استرعت انتباهي أول ما جلست ، بسبب ذلك البساط الرمادي على امتداد الجدار ، أو بسبب تلك الاستدارة الضوئية الشاحبة على مسند صنع هو الآخر من مادة سوداء ، لوحةٌ لامرأة يقترن جمالها المثالي بروح كابية مريرة وقد تهدل فيها كل شيء : الشفة السفلى . النظرة الاسيفة لعينين مختلجتين . اطراف الياقة الرقيقة . الأزرار العابثة المنفلتة . ويدان تمسكان - كلتا اليدين بأصابع مستسلمة - كرة صغيرة من المطاط ملونة زاهية . حتى لكأنها ، بقوة واقعيتها ، محشورة حشراً بين تلك الاصابع الزيتية المجهدة .

اللوحة غير ممهورة بتوقيع ولا مؤرخة . ولكن التفاتتها المترددة - التفاتة المرأة- جعلت لها حضوراً حاسماً بين يديّ ، أو حضوراً لكلينا بين يديّ هذا الهوام الشارد .

اندفع الدم برأسي وانا انصت الى لغو مفاجيء كان يبدو ، ازاء الحوار الاصم غير المكترث بما هو دنيوي ، دنيوياً فجاً . صوت المضيف . صوت الزوجة . وقع خطوات متعجلة . عناد صامت مبعثه صبي لا يكترث للاوامر أو التوسلات .

مكتبة الفكر الجديد

كيف ، اذن ، اضفيتُ كل هذه الانارة الشيطانية! كيف اندلعت كل المجسات الخبيثة لتمنح - بوازع مظلم - كل هذه الاشياء روحاً مظلماً!

ومع الضجيج ، وانا اتجرع دفعة من النبيذ الثقيل ، ضجيج اجساد الضيوف ، وهم يتدفقون على الوسائد والافرشة ، عثرت على صبي يجلس على مقعد ارضيّ ، واطيء ، بجانبي :« . . .ماأسمك ؟ » قال لي .

« ماأسمك انت ؟ ابواي اختلفا وتشاتما ، هناك ، تحت سقيفة العنب . كانا يأكلان تمراً ويتشاتمان . ويلفظان النوى بسرعة . ضحكت انا بسبب ذلك فطرداني . قالا اذهب وكن مع الضيف . كنت وحدك انت فجئت اسألك عن اسمك . هل سمعت صراخهما ؟ . قال أبي ان البيت سيقع على رأسك -يعني رأس أمي- وعلى رأس الضيوف . وكانت امي تصغي ولا تكتم كركرتها . ضحكت انا ايضا فطرداني . هل سمعت صراخهما ؟ . . . أمي غاضبة وأبي لا يكاد يهتم . أمي تحب ان تجلس في غرفة نومها المجاورة وتصغي للضيوف . وانا تعلمت منها ذلك . هذه الصورة على الجدار ليست صورة امي . انها هكذا . لا اعرف منذ متى . قصتها طويلة قالت أمي . هل تعرف عنها شيئا ؟ » .

وضعت أصابعي على شفتيه المتوثبتين . قلت له كلاماً لا احسب انه كان ذا معنى . اختلاجة فرضتها رغبة مضطربة . اضطراب من ترك مصيره في يد ملاك . ما الذي حل بي ؟ كانت الصورة موجودة هكذا . لا يعرف منذ متى . قصتها طويلة هكذا قالت امه . امه تحب ان تجلس في غرفة نومها المجاورة وتنصت للضيوف . ضجيج اجساد الضيوف وهم يتدفقون على الوسائد والافرشة . الوسائد مشرقية بألوان ميتة . وذلك الجرذ الاسود . . ؟ يستدير وجه السيدة الملطخ بالاصباغ ويبتسم أبتسامته الشاحبة الملائكية . وانا كالمسطول احاول ان اتجنب عينيها الخارقتين .

. . معاً نتقاسمُ اصداءَ من تركوا
في الفراغ الذي بيننا وقعَ اسمائهم
. . . معاً نتقاسم حكمتَهم ،
. . معاً ننطوي في جناح سيخفق
يملأ هذا الفراغ . .
. .

خلا المكان تماماً من ضجيج الاجساد ، ومن رائحة الكحول . ومن ذلك الهوام . ولم تبق الا عينا الطفل تترصدان من وراء جدار . اغلقت السيدة عينيها وهلةً ثم اعادت فتحهما على اتساعهما حتى لكدت أتبين الشرايين الحمراء الدقيقة فيهما وهي تنم عن سهر واجهاد .

– لماذا تقاوم رغبتك بالحديث معي . تتجنب ضيق المسافة ما بيننا . وتعبث بكل شيء يحيطك مرتبكاً ، على ان تعبث معي . هل أنِستَ الى الطفل ؟ الاطفال يخشون العواطف المرتبكة ، ويفضلون التطلع من وراء الحيطان على ان يدخلوا دائرة الكبار المريبة . لك ان تهدىء روعك . الطفلُ يجفل من ارتجافة شفتيك . خذ كأساً اخرى . خذ كأساً تستعيد بها رباطة جأشك . ما أشد ما تنبيء عنه تقاسيم وجهك ؟ لوددت ان أثبتها على حجارة او في طين .

قلت لها :« انك ترقبين هفوة مني . ترقبين قطرات دم من نزف مفاجيء . اليس كذلك ؟ » قلت « اليس كذلك » متقطعة من شفتين مرتجفتين . وكأن مشاعر حمى ألمت بي . فأخذتُ كأساً ورشقتُه على لَهاتي . ثم ماذا انتظر ؟ كان يجب ان اهيىء كل شيء واقطع الطريق كمن يقطع منحدراً . . .

مكتبة الفكر الجديد

لم تنبس ببنت شفة . استعادت هيئتها السابقة ، وكأنها تحذر او تتجنب متطفلاً . الطفل هو الآخر لم يعد وراء جدار . يحدق بي وشفتاه تختلجان . وكأنه يهم بتفجير فضيحة . وانا أتنسم آخر عبير في الأفق قبل ان اندثر كلياً في الامواج . افرغت ثلاثة كؤوس متتالية ، ثلاثة كؤوس لاذعة في فمي دون توقف لاتماسك . محاولاً تجريد هذه النفس من المدركات لتصفو مع ذلك الطير الذي يرتفع مزيداً من الارتفاع ، لا تجاوزاً لقمم او سحب بل ليمنح الافقَ الرائقَ ، إزاءَ الخضرةِ الارضية ، شكلَ القوس الروحي .

استغرقني الأكل ، انا ابن الحواس ، واحتساء المزيد من النبيذ . على ان الصبي الذي كان بجانبي أختفى (لشد ما فزعت حين احسست شفتيه مطبقتين على اذني) . بينما الجميع في فوضى وقد علت ابخرة اجسادهم ، وشاعت في الغرفة اصداء نداء لم اتعرف عليه ، كشف لي عن وجه امرأة هادىء مستسلم . امرأة على مبعَدةٍ حالت بيني وبينها الوسائد ،تحتسي نبيذاً او عصيراً . ولم اشأ ان اتكتم مزيداً من التكتم ، خاصة وان وجه المرأة المستسلم قد حجب عني المجموع فأبتسمت لها عن قسمات احسب انها كانت اكثر رياءً ومجانبة للنشوة التي تحيط بكائن على قدر من السوية والتوازن . كان وجهها شهوانياً ولكن على شيء من السماحة . احسست اصابعها تتسلل الى أصابعي وتحيط بها ضاغطة ضغطاً خفيفاً مما جعلني اندفع بكتفي محاولاً الانحناء بأتجاهها لأمنحها قبلة خاطفة . ولكن وجه الانثى داخل الاطار في الركن القصي سرعان ما اتسعت عيناه عن ابتسامة رضا . ثم غمز وقد امتلأ حيوية :

« بس س س س س . . » .

« ماذا يعني هذا ؟ » قلت هامساً . ماذا يعني كل هذا ؟

لقد انشرحت على ما يبدو ، مدفوعاً بفعل شيطاني ، هو فعل خجل لا مرد منه . محاصراً بمشاعر تحد تتفجر من عمق الحاجة الى

مكتبة الفكر الجديد

الهرب والتستر . نعم ذلك فعل شيطاني لا ريب . يستحيل فيه الانهاك الى ضراوة والخجل الى تمادٍ . والا فكيف تفسر ما حدث ؟ إذ ما ان توسط بيننا ضيف أجهله حتى رششته بصحن السلطة المزّيت ، وانا اهرّجُ بصوت عال :

« ظهرك السمين ظهر البقرة . .
ظهرك السمين الى هذا الحد . . »

واستقرت كل طيور السماء على الرؤوس فجأة ، مما دفعني الى ان أقف ممسكاً بصحن السلطة مهرجاً مزيداً من التهريج ، وقد استبدت بي كراهية لا أعرف مصدرها . كراهية ان أقف هذا الموقف ، حيث لا تراجع . كراهية اللحظات الغفل التي استسلمت لها لا عن دراية . حتى بت لا أنتظر إلا ان انهي كل شيء بخبطة ذراع . وهكذا فعلت ياسيدي .

لقد قذفت اللوحة على الجدار بعنف لا عهد لي به . حتى سلختُ بالصحن المستدير كرة المطاط الملونة ، وخرجت ضاحكاً مهرجاً تاركاً امرأة الصورة ، ذات النظرة الاسيفة ، تطل عليّ وهي تبتسم ، ممسكة بصحن السلطة ذاك .

يالمذلتي . . يالهزيمتي .

مكتبة الفكر الجديد

- ٤ -

استحوذ ذلك الوجه على مقدراتي استحواذاً عجيباً . نعم ، مقدراتي الخفية . فالاسئلة التي كنت أحاصر بها نفسي محاصرة الفأر ما كانت لتفوز بجواب معقول واحد . اي خاطر رثّ بعث بك هذه الرغبة المجنونة لمعرفة امرأة في صورة ، أو صورة في امرأة كان يجب ان تكون عابرة ، شأن كل عابر لا ينتسب الا من بعيد لدائرة اهتمامك!!

اية قوة طليقة حرة تلبستك ، وتلبست كل ارادتك حتى اصبحتَ على هذا القدر من الاستسلام لمقدرات لم تكن بيد أحد ؟! لِمَ ؟!

على اني أغفلت حادثاً صغيراً لم يكن ذا شأن اذا ما قيس بذلك الحادث الشنيع . لقد انتحيت - يوم خرجت من الغرفة الصاخبة- بركن معتم من حديقة المنزل ، متلمساً لحاء شجرة قديمة ، وقد توهج رأسي حتى لأكاد أزعم انه انصرف بي ، مخلفاً جسداً لا حياة فيه ، بأتجاه ثنيات من الجحيم .

ثم شهقتُ موصوصاً ، لان يد «المرأة» (اياً منهما ؟) استقرت فوق كتفي الايمن . لقد خرجتْ مسرعة خلفي . وتبعتني كالظل الى حيث انتحيت ثم همست بي :« كان يجب ألاّ تتسرع . كان يجب الا يحدث الذي حدث بكل هذه السرعة» .

وأحسب انها اضافت اشياء بدت لي مبهمة في حينها . على اني لم اغفل وقعها القارص الشديد . هذا اذا ما استثنيتُ افتراضاً المّ بي ان كل هذا لم يكن الا عارضاً من اعراض خلخلة الحواس ، واحتيالاً شيطانياً .

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

الباب الثاني

امتعادات

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

البرابـرة

تحت وطأة مصاعب كثيرة ارتضيت العيش في شقة ميرابل رود التي تشبه القبو . وبالرغم من ان الشقة هذه بغرفة نوم واحدة فان وطأة المصاعب المالية تلك جعلتني اكتفي منها بغرفة الجلوس سكناً . في حين عرضت غرفة النوم للايجار . لقد عززتني هذه الخطوة مالياً . اشتريت دراجة هوائية وجهازاً موسيقياً ومجموعة عزيزة على نفسي من الموسيقى .

ساعة العشاء ، في ليالي الصيف ، كنت اقضيها في شبه الحديقة الخلفي . مع فنجان شاي وكتاب اتصفحه بين حين وآخر ، وانا اتأمل السماء الشاحبة ابداً ، الخالية من الطيور المهاجرة في مثل هذه الساعة . كنت اعرف انني استعيد ساعة مستحيلة من ايام الطفولة . في بلد غير هذا البلد ، وفي ارض غير هذه الارض . ولكن الامر الذي كان يدهشني اكثر انني في كل امسية من هذه الاماسي ، في الخلوة الخلفية من شارع ميرابل ، كنت اكتشف اني مخلوق بلا طفولة . او ان طفولتي ، ان شئت ، مقتلعة . وانها اذا ما تسربت اليّ من قبضة الكوارث غير

مكتبة الفكر الجديد

الطبيعية التي تعرضت لها البلاد ، ومن قبضة التاريخ العابث لحياتنا الشخصية ، اجزاء وشظايا . وان هذه الاجزاء وهذه الشظايا لا سحر فيها ولا جاذبية .

كثيراً ما يفزعني هذا الاكتشاف فأجد خلوتي بفنجان الشاي والكتاب لا معنى لها . وان الحديقة فسحة خانقة . فأقفز الى غرفتي الصغيرة والبس جاكيتتي على عجل واهرول الى البار المجاور في منحنى الشارع . هناك احتسي بيرتي المفضلة واجلس صامتاً لا احادث احداً ساعتين او ثلاثا .

وصلتني رسالة من صديق يقول فيها انه يتمتع الان باجازة الصيف السنوية وان نيته لزيارة لندن لا غنى عنها ولا شك فيها . لقد اعد كلَّ شيء وهو ينتظر اشارتي . فأنا مقيم منذ اكثر من عشرة شهور وعلى علم ، دون شك ، بزواياها التي يستطيع فيها «الهارب المرهق ان يستسلم للصمت والسلام» على حد تعبيره . ويقول انه اكتشف في الايام الاخيرة « ان آخر ورقة من لعبته العابثة كانت ورقة خاسرة » . ولم افهم بالتحديد ما الذي كان يعنيه باللعبة العابثة التي كان يحاولها . وما هي طبيعة تلك الورقة ا لخاسرة . ولم اشأ ان اسأله مزيداً من التفاصيل . فالناس تحتاط هذه الايام من تبادل الرسائل . الكلمات قد تحمل بين يدي رقيب مضطرب الاعصاب اكثر مماتذهب اليه من معان . ولم اكن على علم يقيني بمجريات الامور . كل ما هنالك ان دوامة الغبار التي عصفت في البلاد كلها لم تكتف بتشتيت اوصال الناس بل غطت على تفاصيل حياتهم فما تَبين .

بعد اسبوعين من وصول رسالته على وجه التقريب اتصل بي صاحبي من المطار معلناً وصوله . وبعد أقل من ساعتين كان بكل عدته بين يدي في شقة ميرابل .

لا شك انني فوجئت بعواطفه الباردة وشروده . لم اشأ ان اقحمه بتيار الاسئلة التي تزدحم داخل رأسي . فتحت قنينة الويسكي ثم

مكتبة الفكر الجديد

اتجهت الى رف الاسطوانات ، معولاً على الكأس الاولى . فالقادم مرهق ولا يريد ان يستعيد شيئا مما سبق اقلاع َطائرته . اقتحمتُ ملامحَه مواربةً وانا اقلب «باخ» على الرف . .

عيناه الشاخصتان الى الكأس بضرب من الرفعة ليست من طباعه . ولكن الغفلة - كما يبدو- قد جعلتهما كذلك . قلت لنفسي ان «باخ» لا يليق ، ولكنني سحبت بدافع من العناد «الآم القديس ماثيو» ودفعت بالاسطوانة الاولى الى الجهاز الموسيقي وادرت مؤشر الصوت الى اكثر طبقاته انخفاضاً .

-« . . تذكرتُ احد اصدقائنا . كان يحب الجبنة البيضاء مع العرق . هل تذكره ؟ كان دائماً يحتفظ بقطعة جبن في جيبه . وحين يأتي مساءً الى النادي ويطلب رُبعَه المحبب من العرق كان يخرج قطعة الجبن ويضعها امامه على كيس من الورق ثم يطلب سكيناً . لا انسى ذلك . ما الذي حل به ؟» .

رفع صديقي عينيه الي ثم اعادهما الى الكأس . كان في غفلة حقاً . فهو لم يستعد كلَّ انتباهته بعد . نصف الانتباهة غير كاف لاجابتي .

- « اي . لعلي انا الآخر اذكر الجبنةَ البيضاء» .

-«ماالذي حل به ؟»

-« لم اره منذ مدة طويلة . الحقيقة انه لم يعد يأتي الى النادي . انا الآخر لم اعد اذهب الى هناك . لم يعد احد يحتفظ بتلك العادة» .

-« اكل الجبنة البيضاء ؟» .

-« لا . . اعني الذهاب الى النادي» .

-«آ . . .»

لمْ يسألني لمَ اطلتُ الوقوف . واي عمل هذا الذي تحتفل اصواته بعيداً . ولم اخترت هذه القطعة من الموسيقى بالذات . لاقصيه بعيداً عما لم يألف من عالمي . شعرت ان شيئا ما يحاصره . كان رقيقاً تماماً في الاستجابة للحصار . تركت جهاز الموسيقى واستدرت اليه .

مكتبة الفكر الجديد

-« هل يضايقك امر ؟ »

-« لا ابداً . جرعت الويسكي بدون ماء . هذا كل ما في الامر . ان حدته لذيذة ولكنني لم آلفها . نحن لم نألف اموراً كثيرة » .

-« اعرف » .

-« وصعبة للغاية » .

-« لم تقل لي شيئا . لدينا متسع من الوقت ، على كل حال . متسع للحديث . انت جئت في الوقت المناسب » .

ثم استدرت على عجل ، وكأنني تذكرت شيئا ما ، الى جهاز الموسيقى ورفعت الصوت قليلاً . كان صديقي يمتعض ثانية . فقدرت انه اخذ جرعة اخرى دون ماء . او انه تذكر امراً ما .

-« هل اجازتك طويلة ؟ » .

قلت له وانا اعرف مقدار خلو سؤالي من المعنى . كان هو يحدق في كأسه ولم يجب . بلل شفتيه بلسانه وكأنه يمسح عنهما اجابة هامسة تسربت سهواً .

-« . . اذا ما قدر لي ان اعثر على زاوية » .

-« . . . للصمت والسلام » .

بادرته فقد عرفت ما كان يرمي اليه . ادرت مؤشر الصوت الى الاعلى قليلاً . حيث الاصوات البشرية ما زالت تتناوب ادوارها المعزية .

ربيعي انت
كلماتُك كم غذّتني
في الارض بطعامِ الملائكه
ومجدُك كمْ قادني
الى الخير السماوي .

ثم اطفأتُ الضوءَ مكتفياً بالانارة المنبعثة من المدفأة الغازية على الجدار . لن اخرج هذه الليلة الى الحان المجاور .

1986

مكتبة الفكر الجديد

الباكستاني

جريدة التايمز اللندنية الى جانبي . أدرتُ رأسي وقرأت «ان اعصاراً انطلق على مقربة من جامايكا واجتاز البحر الكاريبي نحو كوبا كاسحاً ارواحاً ومنازل وقرى صغيرة . .» . أي اضطرابات عمياء في الطبيعة! تذكرت ازمة الصواريخ في 1962 كنت اقف اصيلا على بوابة المكتبة ، التي اشرف عليها ، لم استعر كتبا ذلك اليوم . وقفت اتطلع على مخلفات الشمس الغاربة ، والغيوم تبدو عبرها مثل انفجارات نووية صامتة . ماالذي سيحدث لبغداد لو ان السوفيتي لم يلتفت الى تحذيرات الاميركي! كنت آنذاك صبياً لم يترك لي الاستغراق في الكتب القديمة ، والشعر الجاهلي على وجه الخصوص ، بصيرة سياسية لفهم مجريات العالم من حولي . كنت حينها خائفا . ولم اقرأ يومها شيئاً .

ولكن ذلك الاعصار لم يحرك بي ، في تلك اللحظة ، من الجزع والاضطراب ما حركه تيار رطب تسترب من النافذة المطلة على اكثر احياء لندن بؤساً ووحشة . هذه النافذة بقيت مفتوحة حتى اشبعت كل

مكتبة الفكر الجديد

اشـيـاء الغـرفـة ، وانا ضـمـناً ، بالرطوبة . البـلانكيت الكالح . الشراشف تتـوزعها بقع صفراء تشـبه آثار احتراق او آثار بول قديم . الارض البـلاستيكيـة . المعدات والادوات الطبيـة الموزعة هنا وهناك . صورة الحقل الزيتية والملامح الضائعة لفرس سائبة فيها . الكرسيان الجاثمـان احدهمـا قبـالة الآخر . واخيـراً انا والبيـجاما المقلمة والمغلفة بالسيلوفين .

كان هناك مرضى نقلوا من غرفة الانعاش الى صـالة تضم اكثـر من مريض . الامر لم يكن كذلك معي . هل كانت النوبة القلبية على هذا القـدر من الخطورة ؟ حين سـألت الطبـيب وانا نصف مـصـدق : «مـا النتيجة يادكتور ؟ » قال :« علينا ان ننتظر » ثم طمأنني بعد ذلك وأمر بنقلي من سرير غرفة الانعاش الى سرير غرفة خاصة . كائن ما يتطلع دائماً الى غرفـة الانعاش . والى أسرةِ مرضاها . تلك التي تسـتقبلهم فـاغـري الافـواه ذابـلي الاعين ، وقـد أوكلوا كليـةً الى فـراغ لا صلة له بمعاني الجزع والخوف والشكوى . ثم تسلمهم بعد حين الى ذويهم كما لو بترت السنتهم تماماً .

انا لم يكن لي ذوو في هذه المدينة الغريبة . وحكايتي وليدة هذا الفاصل الزمني الذي يشبه هوة من فراغ ، لا احد . على حد علمي . قد حاول التحديق فيه وادراكه .

لم تكن غـرفـتي ، كـمـا تـوقـعت ، قـبلةَ عـائدين كـثـيـرين . فـهي وحدها دون الغـرف جمـيعـاً تنفـرد بمخلوق لا يملك غيـر المراقبـة سلواناً وعـزاءً . عـادني صـديق واحد على ما اذكـر . وآخـر اعـرفه مـعـرفـة عـابرة ، جلس صـامـتـاً ، وانصـرف شـاحـب الوجـه مـضطربـاً . خلف الاثنان باقتين من الزهور وضعتهما الممرضة على النافذة بجوار السـرير .

مكتبة الفكر الجديد

تذكرت سريري في شقة ميرابل رود . في الزاوية الرطبة . وتذكرت زهور عباد الشمس اقتطفتها من الحديقة الخلفية ووضعتها في وعاء على حافة الشباك . لم اجد معنى للزهور حينذاك . كان بائعها يستقبل الزبائن على باب المستشفى ، وهم يدفعون ثمنها دون مبالاة . ويهرولون داخلين .

لكن زائراً تجاوز كل مألوف ، وقدم لي بيجاما مقلمة بكثير من الارتباك . لم يكن يحسن حتى ضبطه . ادى كل ذلك الواجب مدفوعا بارادة قاهرة لا يد له عليها .رأيت ذلك في عينيه وفي بشرة وجهه وقد اختطف منها الدم كلية . قدم لي البيجاما المقلمة والمغلفة بالسيلوفين باندفاعة جزعة ، او قل رماها رمياً . وفمه يتعثر بابتسامة وبضع كلمات لم يكن يعنيها ثم جلس مضطرباً اشد الاضطراب ولم ينبس بكلمة واحدة حتى اللحظات الاخيرة التي قفز فيها مغادراً الغرفة بخطوات عراض كمن ارتكب منكراً .

بعد ساعتين من الزمن ، وقد خلوت الى نفسي تماماً ، عاد الشاب الى غرفتي ثانية ، وهو مرتبك ومتردد ولكن صرامة وعناداً شديدين يدفعان به الي منذ الوهلة الاولى التي دخل فيها .

كان معتدل القامة نحيفا رقيق العظام ذا بشرة جافة عميقة السمرة تخالطها صفرة المرضى . يرتدي بذلة رمادية شبه بالية . وقميصاً املحَ مزوداً بدبابيس قديمة عند الياقة . الصفرة تنم عن مرض مزمن ، وتكشيرة الاسنان تنمّ عن آثار جوع .

صفرة المغترب المقتلع من الجذور .

ثم ان عينيه القلقتين اللتين تنمان عن اجهاد تنتسبان ايضاً الى مدى من فراغ يتميز به من يفتقر الى الطفولة او الى الوطن . كانت

مكتبة الفكر الجديد

عيناه تتقافزان فوق اشياء الغرفة دون هدف . وهو اذ ينظر الي لا تغشى عينيه اللمسةُ التي تغشى العيون عادة حين تحدق في وجه انساني . لمسة الشفقة او الغفران . لمسة الحنو والحب . لمسة الكراهية او الاستنكار . او لمسة اللامبالاة . ان لحظة ينظر فيها الى وجهي تشبه لحظة ينظر فيها الى صنبور الماء داخل حوض الغسالة . والى اصابع قدمي البارزتين تحت الملاءة البيضاء . يفعل كل ذلك كمن يتابع حركة طائر خفي يجوب حنايا الغرفة واشياءها .

«هل رأيت الباكستاني ؟» . قال بغتة وهو يحدق في الفراغ ، فراغ الباب المفتوح . ادهشتني الجديّة التي شملت كل تفصيلة فيه . فعيناه اللتان استقرتا على فراغ المدخل كانتا مشحنتين بمعنى من تلك المعاني القريبة الى الفهم العصية على التعبير . كما ان مفاصله تماسكت جميعاً كأنه يهم بعمل شيء او يستعد له .

« هل رأيت الباكستاني الذي يرقد في الجناح على اليسار . تستطيع ان ترى فتحة الجناح من حيث ترقد . انها تشبه بوابة كبيرة . يخرج منها الباكستاني كل ساعتين ، وحده ، مشتملا بوزرة حمراء حال لونُها . وتسربت منها الشراشيبُ والخيوط . انه يشبهني الى حد بعيد . اعني انه من الشرق على كل حال .اسمر البشرة . هزيل ، بفعل مرض قلب مزمن دون شك . فهذا جناح امراض القلب . اقام هو فيه زمناً طويلاً . تستطيع ان تتبين ذلك من تصرفاته . ان عينيه ترميانك بلمسة عطف رقيقة فهي تحيط بأطرافك جميعاً . وتقول لك بكلام فصيح :« أرحب بك بأسمهم جميعاً » يقصد جميع المرضى . و« كلنا هنا ابناء قلب واحد ، ويجمعنا ذات المصاب . والا ما قيمة ان يكون للانسان – اي انسان – قلب من لحم ودم » . وهو ينسحب بهدوء ليعود ثانية بعد ساعة او ساعتين بعينين اكثر الحاحاً :« هل نبضك واه فتَهِنُ انفاسُك . وهل استدعيتني لهذا السبب ؟» .

مكتبة الفكر الجديد

وتستدير انت ، متجنباً بفعل الحياء هذا العرض الكريم ، على جنبك الآخر وتغطي رأسك وعينيك بظلام ساعديك . تحركهما بكل ما تملك من حذرٍ خوفَ ان توحي حركتهما بالتلويح والاشارة . فيقبل عليك الباكستاني بكل حرارة المتسجيب فيما يعقد لسانك وتجف عروقك . هذا ما كنت احذره تماماً . حتى بات يؤرقني في ساعات الليل الاولى من كل يوم . واذا ما اقبل النهار تراني الوح يميناً وشمالاً بقصد او دون قصد ، وكأن يدي المسكينتين اسيران اطلق سراحهما توا .

نعم ، في النهار اشعر بطلاقة اكثر واطمئنان ، فالباكستاني - واقول ذلك على وجه التقريب - لا اكاد اتبينه طوال النهار كما هو على عهده طوال الليل . واحسب ان ما يحول بيني وبينه ، بين رقدتي وبين اطلالته الملحاحة ، تلك الحركة المثابرة ، حركة عربات المرضى وتخاطف الممرضات والاطباء وكثرة العائدين وما يخلفه ذلك من شبكة اصوات لا نهاية لدويها . والا فان بقايا الباكستاني ، وانا المحها عبر هذه الشبكة ، بقايا حقيقية يسرها فضولي المدقق وليست مجرد خيال تصطنعه حواسي المضطربة . ثم انك تحسب لفيض الخدمات الذي تقدمه الممرضات والعاملات حساباً مرتاباً اذا ما اردت ان تقدر قيمة ما يعرضه الباكستاني طيلة ساعات النهار ، لو اتيح له ذلك طبعاً » .

صمت الرجل كما لو قاطعه احد بغتة . التفت الى الباب وكأنه يتطلع الى شخص ما يهم بالدخول . حتى انه اعاد ترتيب جلسته على الكرسي الخفيض . وحين التفت الي وتطلع الى وجهي المستغرق في وجهه ، متحفزا لاستجابتي ، تماسكت مفاصله ثانية ، وعاد اليه تدفقه : « . . . .هل رأيت الباكستاني ؟ اعني ، هل طلع عليك ليلة البارحة ؟ لا تستطيع الا ان ترى نصفه الاعلى اذا ما نظرت اليه من زاوية رقدتك هذه . ولكنك اذا ما استجمعت قوتك ، وسيحدث هذا

مكتبة الفكر الجديد

مستقبلا ، فتجلس على مؤخرتك باستقامتي انا فلا شك انك ستراه بكامله . هو ووزرته الحمراء الباهتة . ولكن يا ترى هل تنام مبكراً ؟ فانا لا عهد لي بالنوم المبكر ، وانا ارقد هنا في مكانك هذا . ستة اسابيع بطولها . نعم لم اكن اعرف طعم النوم . حتى ان الحبيبات المنومة التي كانوا يدسونها بين شفتي كانت تضاعف من وسواسي وتوتر اسلاك جمجمتي مزيداً من التوتر . ثم انني كنت ابصبص من بين فتحات ساعدي المطويين فوق وجهي لارقب حركة الباكستاني واتأمل مخارج حروفه الهامسة . هذا ما كان يلزمني بيقظة تشبه حلماً او كابوساً .

ذات ليلة ، وانا ابصبص كالعادة ، لم اسمع حركة الباكستاني على انني سمعت صوته يملأ كياني كله . فتيبس كل شيء بي . انني اقول لك الحقيقة دون لبس . نعم ، بالرغم من انني لا استطيع ان انقل اليك كلمة واحدة مما تفوه به الباكستاني . الا انني سمعت كلامه حرفاً حرفاً . ولم يفتني مما قال حتى تلك الطقطقة التي تخلفها لمسات شفتيه اليابستين . لقد فتحت له عيني على ما يملكان من اتساع وقدرة على النظر . كنت ارى مشد وزرته وقد تداخلت عقدته بعقدة سرته ، ثم ركب فوقها ذلك الهيكل الرقيق المهزول الذي تتلاحق الانفاس فيه مع الكلمات . الكلمة الواحدة بنفس واحد . نفس تستطيع ان ترى مدى عمقه او رقته من انتفاضة الجلدة التي تتجاوز موانع العظام البارزة . قال لي كلاماً كثيراً . ولعلي نسيت منه الكثير . حتى باتت بقاياه في رأسي اشبه ببقايا طعام جافة في وعاء قديم . والا فما تعنيه كلمة «رائحة» في «رائحة الوسواس» على سبيل المثال . اذا ما اطبقتْ عليها شفتان مريضتان . كل شيء يفلت مثل هواء في شبك . كل شيء يفلت . الا استنادته الجانبية تلك على الضلع الايمن من باب الغرفة ، واستغراقه العجيب بي ، لا يمكن ان اغفله لحظة او انساه .

مكتبة الفكر الجديد

كنت اصغي اليه كما اصغي لدبيب الغيبوبة يزحف فوق البشرة ، دون ان اجرأ على حركة صغيرة ربما تعكر عليه طلاقة لسانه الهادئ الخفيض . الا انني تجرأت للحظة واحدة ، وهو يتحدث قائلا : انت عار والمرضى يلبسون البيجاما عادة . . . . لا اظن انه سمع شيئا او انه احس بمقاطعتي على كل حال . الا انني شغفت كليا بمقاطعتي واعتبرتها حجة للمشاركة في الحديث مع كائن طالما تركني عاجزاً .

لقد كلمته اخيراً . قلت له ان المرضى يلبسون البيجاما عادة . وهو عار دون المرضى . بوزرته الحمراء الباهتة . ولم انتبه الى ما يمكن ان اسديه اليه من معونة الا بعد مغادرتي هذا المكان . هذا شأن المرضى عادة . فلقد التبس علي الامر في حينها . اعني لحظة مخاطبتي اياه . حتى لكأن الصوت الذي خاطبته به لم يكن صوتي انا . الا انني بعد كل الذي حصل تعين علي ان اعيد اليه فضله بهدية متواضعة . هدية وجدت ضرورتها ملحة لذلك الكائن ، حارس مرضى القلب من الوسواس . فهل لك ان تعطيه هذه البيجاما . لا . . . لا ضرورة في ان تذكر له مصدر الهدية . كلنا هنا ابناء قلب واحد ، يجمعنا ذات المصاب . والا فما قيمة ان يكون للانسان – اي انسان– قلب من لحم ودم . اذن لن تتردد . . . »

لندن 1981

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

سقوط ورقة ذابلة

حتى البارحة صباحاً لمْ اكن قد قررت العودة . تركت كل شيء على حاله في غرفة الفندق ، دون ان اراعي تصرف العاملين معي كما لو كنت على اهبة الاستعداد للرحيل . ثم اني تشاغلت عن ابتسامات (عبدل) القابع في زاوية بدالة التلفون مراقبا حركاتي القلقة .

كان (عبدل) هذا يشغل مكان صاحب الفندق بسبب انصراف الاخير الى ولع لا ينفد بأحتساء الفودكا البولندي . و(عبدل) هو الآخر رقيق الحال كثير الوسواس على قدر من البساطة والغفلة . ولعله بسبب هذه الغفلة قد نسي تماماً الليلة التي جمعتنا سوية في غرفته . حيث افضيت له ـ بفعل الخمرة التي اخذنا منها حصة عشرة رجال ـ بقصة المرأة التي اصطحبتها معي الى غرفة الفندق بعد خمسة ايام من وصولي الى هذه المدينة . واذكر انه كان بفعل الخمرة وحدها شديد الانفعال والشغف بقضيتي . حتى انه عرض علي بفعل وازع عراقي غرفته المتواضعة لاستخدامها اذا شئت او نفسه وسيطا اذا احتاج الامر الى

مكتبة الفكر الجديد

وسيط . وهو يعرف انني لا احسن الانكليزية . قلت له حينها ، كمن يقرأ من كتاب ، ان قلب المحب لا يعوزه وسيط او مكان . وادعيت انني اعرف من الانكليزية ما يكفيني ولقد كذبت حينها كذبا مريعا . فقدرتي على التعبير كانت اشبه بسمكة ميتة . ولكن صاحبي في غرفته الصغيرة ، باندفاعاته العراقية ، كان يحثني ويشجعني ويندفع معي في اتجاهات عدة . حتى اختلط علي وعليه الامر . فلسعة الدخان والكحول وضيق الافق في الغرفة المغلقة . ثم الرغبة المكبوحة للحديث عما هو شخصي ، والانفلات من جو العمل اليومي بين غرباء وفي مدينة غريبة ، كان اشبه بعود كبريت القي بفعل الصدفة في خزان نفط . كان يقول لي ان الحب ، اي حب ، يجب ان يكون وليد مشاركة وجدانية . ولا تشكل المنغصات وحتى الفقدان الا ما تشكله الغيوم التي كلما ازدادت جهامة وتعكيرا منحت الطبيعة وجها اكثر حيوية وعنفوانا . ولقد عجبت وقتها من هذه المقارنة . ثم عقد مقارنة اكثر غرابة بين العشاق الذين لا منغصات بينهم ولا فقدان وبين سماء صاحية في لوحة زيتية . وحين سألته عن وجه الشبه في هذه المقارنة العجيبة ، قال وقد انشرح وجهه وكأنه فوجئ متلبساً بفعل عابث : « لا شيء . . لا شيء البتة » . ثم انقلب الى منحدر آخر دون ان تتغير ملامحه ،وكأنه يسترسل في ذات الاتجاه وذات الموقف قائلا : « كل عاشق ياصديقي كائن نضبت فيه الحياة فاستعان بالآخر . انه لم يجد في كيانه الكفاية فاستعان بالآخر بحثا عن مُتكأ . ولعل مرحلة الحب ذاتها ليست الا اليأس الكلي من الكينونة » .

ثم حدّق في وجهي فاغراً فاه وكأن الافكار قد نضبت في رأسه الصغير المعروق . ولم يجد من الكلمات ما يسد به الفراغ . وانا الآخر لم اكن اكثر حذقاً منه فبقيت مأخوذاً بسيل كلامه الذي خيل الي انه يخرج من فم كائن آخر . ثم من وقفته المفاجئة هذه ومن فمه

مكتبة الفكر الجديد

الفاغر الجاف . . . وجدته يعود ثانية الى الحياة . مندفعاً ولكن بشئ من الارتباك وعدم الاقتناع هذه المرة قائلا :« انني اجد في محبة المبدأ ياصديقي ، ومحبة الله ان شئت . . » . ولانني لم احتملْ كلَّ ذلك سيما الطفرة الاخيرة التي بدت لي اشبه بهوة سوداء ، قفزتُ كالملدوغ امامه وقلت :« لا ياصديقي . . . لا . انت دخلت في مضيق لا رجعة لك فيه .لا . ارجو ان تهدئ من اعصابك » . ثم امسكت بقنينة الويسكي واحكمت اغلاقها . وكأنني بهذا اضع صمام الامان على قنبلة موقوتة . او اضع حداً لهذه الموجة العاطفية التي جرفت صديقي الى مدى ما كنت ، ولا كنا ، نتوقعه .

نزلت هذا الفندق قبل اربعة اسابيع . اقلني اليه سائق تاكسي دون ان يكلف نفسه مشقة سؤالي . نظر الي مبتسماً وقال :« أرابيك ؟ . . سلام عليكم » . ثم اعادها مبتسما وانا احرك رأسي بالايجاب . وقد ملأني هذا الوفاق بالراحة . كانت لحظات كهذه تقلقني اشد القلق بالرغم من التطمينات التي حملتها من بغداد عن يسر وسهولة الخدمات في هذه المدينة وعن سائقي التاكسي بوجه الخصوص . وعن فراستهم امام الوجه العربي الذي لا تحُوجهم قراءته الى لغة او اشارة .

هذه كلمة حق . اذ سرعان ما وضعني انا وحقائبي امام بوابة زجاجية لفندق متوسط الحال . ثم وهو يتناول مني الاجرة قال (عبدل) ، رجل البدالة الذي خرج مسرعاً باتجاه حقائبي ، كلاماً قليلاً لم افهم منه شيئاً . ومضى في سيارته الى سبيله .

اخذني (عبدل) هذا ووضعني على كرسي صغير في مدخل الفندق وهو يقول بما يشبه الهمهمة انه سيخصني بغرفة واسعة . وانه يتركني

مكتبة الفكر الجديد

هنا للحظات ريثما استرد انفاسي . وانه ذاهبٌ ليعدَّ لي فنجان شاي عراقي . وانه . . . ثم همهم باشياء كثيرة وذهب . ومما اشعرني بالرضا والطمأنينة حقاً انه لم يخلف وعداً . فلقد اعد كل شيء في لحظات .

أحضر كوب الشاي بالرغم من انه لم يكن شاياً عراقيا . كما أعطاني مفتاح الغرفة التي وجدتها فيما بعد جديرة بالرضا ، بحيث لم اقاوم رغبة بالاسترخاء على سريرها الانيق الواسع . ولم اجد سبيلا من الاسترسال في غفوة امتدت اكثر من ساعتين .

انني رجل احب اطفالي وزوجتي . لا مجال للشك في هذا مطلقاً . مضى على حياتي الزوجية اربعة عشر عاماً لم تعكر مياهها الا نزوات تحصل بين كائنين سويين . فلقد كانت هي من عائلة حسنة السمعة . شديدة الحياء وعلى شيء من التدين . الامر الذي لم يكن من طبعي انا . ومضت السنوات بعد الزواج والانجاب كأحسن ما يكون . لم يحدث عبرها أنني غبت عنهم غياباً طويلاً يتجاوز اليوم او اليومين . ولم يحدث ان عملاً يومياً قد شغلني عن العودة اليهم في الموعد المكتوب . فانا لا ارتاد المقهى ولا نوادي الليل .

امليتُ رسالة عاجلة للاهل فورَ استيقاظي من النوم . وقلت لهم فيها انني القيت من باب الطائرة الى باب غرفة لم يتسع الوقت حتى الان ان احصي محتوياتها . وان يَدي (عبدل) الرحيمتين هما اللتان وفرتا لي جو الالفة . وان (عبدل) هذا شاب عراقي طيب العرق . ولكنني لم أكن بعدُ على بيِّنة من حقيقة اسمه . ثم في رسالة لاحقة وجدت فرصة لتوضيح الالتباس مستفيداً مما شرحه لي (عبدل) نفسه .

مكتبة الفكر الجديد

فلقد كان صاحب الفندق ـ وهو بولندي الاصل ـ كحولياً . وكان يضع مزيداً من الثقة في صاحبنا العراقي ، لينصرف هو الى داخله فاقد الوعي ، والسبيل الى التوفيق بين متطلبات الفندق الشاقة وبين متطلبات روحه اللائبة . وبسبب جهازه المعطل كان لا يجد على لسانه ذي اللكنة البولندية متسعاً لاسم (عبد الوهاب) بكامله . فهو يكتفي بالنصف اليسير . وهكذا جرى الاسم الجديد على ألسنة نزلاء الفندق أجانب وعرباً .

ولعلي بالرغم من تعطلي عن كتابة الرسائل في الايام الاخيرة من اقامتي هنا ، كنت اكتب رسالة كل يوم . فصور ابنائي على الطاولة وازع كاف لكتابة سطور عن محباتي واشواقي وعن ساعات البعاد المملة الطويلة وعما اشتريته لهم وما انوي شراءه . خاصة وان فحوصات الطبيب التي لم تر ضرورة لاجراء اية عملية جراحية قد وفرت بين يديَّ مبلغاً كافياً لان أحقق به بعض الرغبات . فكم تشعرك الشوارع هنا أن ثمةَ رذاذاً خفيفاً من المطر قد سبقك لوهلة . وان الحجارةَ والاسفلت والحشائش التي تتوزع الامكنة رطبة على الدوام . وان الناس الذين تزدحم بهم هذه الشوارع ، على كثرتهم ، يبدون قلة قليلة بفعل خفة حركاتهم والتكتم الذي يحيط خطواتهم المتعجلةَ ابداً . ان هنا متسعاً لكل شيء . والسماء ، التي تبدو للوهلة الاولى ضيقة ، دائمة الحركة وعميقة ، هي نادراً ما تكون على غير هذه الحالة . والمطر هنا محبب فهو لا يمنعك من التجوال على كل حال . بل يدعوك اليه . تجوال على غير هدى وفي كل اتجاه . وهذه الشوارع كما يبدو تأخذ وتعطي . لو اخذنا معنى العطاء ابعد قليلاً عن الملموس الزائل . وانني لا احب ان اذهب بعيداً في استخلاص تجربة محض فردية قد لا تشكل لدى الآخرين الا نزوةَ رأسٍ لعب به الشيطان فهو لا يجد فيما وضع الله عليه من اقدار ما يستحق الاحتمال والشكران .

مكتبة الفكر الجديد

ولكن من أين لي ان اتبين في لعبة المصائر هذه ما يفصل اليد الشريرة التي تمسك بي عن اليد الخيرة . وفي ظلمة العواطف الحارقة ما يميز صوت الشيطان عن صوت الله .

في احدى الامسيات التي كنت اتهيأ فيها ، منتشياً بفعل الجو الرطب ، للجولات القصيرة في شارع (ايرلس كورت) ، خيل لي ان قدراً ما ـ قدراً لعوباً خفيف الظل ، رائقا ـ يوسوس في اذني . خيل لي وانا اضع يدي في جيوب البنطلون ، كمن يتهيأ لوسوسة يحس مجساتها تحت ابطيه ، بأنني اودّع شخصي المتردد الاسير ، وانا في هيأة كائن آخر اكثر استعداداً ، واعطي لقفاه اليابس دفعة رحيمة الى حين . ولقد خيل لي ايضاً ان تلك اللحظة تنتمي بحق وحدها ، وهي ريانة يانعة ، لحياتي انا . وان كل اللحظات ، بل السنوات السابقة لم تكن الا علقا لا سبيل الى الخلاص منه الا بهذه الدفعة الرفيقة ،وقد خلّفت اصابعي في جيوبي مزمومتين معروقتين .

دهشت لهذا الاثر ، وكأنه ينبعث من غدير تحت الحجاب الحاجز لم آلفه من قبل . غدير خُيل اليّ للحظات انه من مخلفات غير واعية لاولى سنوات المراهقة . الا انني لم المس بين التماعات ذلك الغدير ما يعكره من صفرةٍ وجفافِ اوراقِ ذلك الشباب .

لم اتردد في القاء قطعة نقد لم افحص قيمتها الى عازف كمان شاب . لان حزنه قريب النسب من الاثر الذي ينبعث من غديري . حزن فيه نشوة سعادة دفينة غير صاخبة . ولم اتردد بعدها في شراء قنينة بيرة باردة فتحتها فوراً ووضعت فتحتها على فمي وكأنني اقول ما لم اقله طيلة حياتي . ومن عجب انني ابصرت ابنائي على هيأة مرايا صغيرة تضطرب امام عيني اضطرابا رائقا .

مكتبة الفكر الجديد

في بار صغير ، وفي زاوية منه تطل على حديقة خلفية كثيرة الخضرة ، خالية تماماً تقدمت من فتاة منفردة مع قصاصات ورقية . ودون ان ارتجف او تهم بي تلك القبضة الفولاذية التي تخرج من عتمة روحي وضعتُ اصابعي على اطراف طاولتها الصغيرة وقلت مبتسماً وكأني صديق قديم « هلو » . وفي عيني لغة انيسة لم تجد الصبية بدّاً من الاصغاء اليها والحوار معها .

اجابت « هاي » ، مبتسمة وتخلت بارتياح عن القصاصات واسترخت على كرسيها وهي تحدق بي . ثم سرعان ما قفزت ضاحكة راطنة ببضع كلمات احسب انني فهمت معانيها ثم اندفعت الى البار . ولم أجد بدّاً من الاندفاع وراءها وكأن خيطاً يربطنا معا من موطن في السرة . لانني من هناك كنت اسمع ضجيج بهجة لا تقرن الا بتلك الصعداء التي يتنفسها النائم وقد حقق بين قبضتيه كل امنياته العزيزة . ولكنني لم اجرؤ ان استيقظ وقد خُيّل لي ان هذا حلمٌ عابر لا استحقه ، محتفظا بكل غموض الاحلام ولا منطقها ، ومانحا نفسي كليّةً لدائرة هذه الصبية الاخاذة ولهذا الجو الرطب المنعش ولبشرتي الجديدة وعظامي الجديدة وقد نبتت على ارض غير ارضي واورقت .

تناولت منها كأس البيرة دون شكر فاللياقة ثقيلة . ورجعنا الى مقعدينا وانا افتش عن كلمة واحدة ، كلمة انكليزية واحدة تعيدني الى الواقع والى الحقائق الصغيرة التي تحيط بكلينا . ولكن عينيها السعيدتين ابعدتاني بقوة الحلم ذاتها والصعداء التي يتنفسها المحرومون عن دائرتي ثانية الى دائرتها . ولم اجد سبيلا الى الكلام . فلقد وجدت لساني يعوم كسمكة في كأس البيرة الباردة .

مكتبة الفكر الجديد

- ٢ -

كان اظفر ابهام القدم اليسرى قد علق بخيط عند ثنية محكمة في نهاية الغطاء الثقيل . ولم استطع ان اوفق بين ثنية يديَّ المشرعتين ، العاريتين ، وبين عشرة تلك القدم التي لا سبيل الى الاستدارة اليها وتخليصها . واحسب ان الحَرجَ هو الذي جعلني اتردد هذا التردد الاعمى عن ان التفت التفاتة صغيرة الى الخلف وازيل الخيط من الثنية او ذلك الابهام من الوجود .

كان اشبه بسلك معدني علق بأظفري جعلني معلقا بصورة متشنجة امام صبيةٍ نصف عارية ، تمثال ابيضَ عميقِ الحمرة . ايقونةٍ كنائسية . بشرةٍ نهد لم يستدر بعدُ استدارة كاملة خارج فتحة الثوب .

انتزعت اصبعي كاملاً من فم الذئب مما اشعرني بوخزة حادة مخدرة . استلقيت بعدها على جسد كارين .

كانت اصابع كفي العشرة قد اندست جميعَها بين الفراش وبين ظهرها الذي لم يزل يحتفظ برطوبة الجو ومخلفات البيرة الباردة . وهناك استقرت كما لو كنت اعدُّ بها اساساً ثابتاً لبنيان مقبل . فلقد شرعت اصابعي على اتساعها بين ثنيات لحمها الصبياني ،بينما كان الابهامان وتدين راسخين .

لم ازل شيئا من مكانه . فلقد تركت للصدفة العمياء التي قادتني الى سطح ورقة الخليقة البليلة وتركتني تحت ظل هذا الشدو العميق في

مكتبة الفكر الجديد

غابات الله ان تكشف عن مفاتن هذه الحسناء شيئا فشيئا ما سترته من قبل . فلقد اصبحت مذ استلقينا على السرير اكثر اطمئنانا ورقة بال . ولم تعد الغريزة تتناسل في ذلك القبو المظلم . بل اصبحت غريزة وجود وغريزة حرية لا عهد لي بهما . خيل لي لحظتها انني قادر على الاقدام على اجراً الخطوات واتخاذ اخطر القرارات والاقبال كلياً على الحياة وكأنني استيقظ فجأة .

كانت عيناها مغمضتين . قبلتها علها تفتحهما لأستطيع عبرهما استنشاق تلك الطيات الداخلية التي لا تبين في اللقاءات العابرة . نظرت الي ثم الى السقف ثم الي ثانية .

اخرجت اصابعي من تحت ظهرها اللدن السائغ ورحت اعريها من لباسها الداخلي وقد اصبح بفعل الزغب المبلل نصف رطب ، ومن قطعة ثوبها الصغير التي سرعان ما اختفت في طية ما من طيات الفراش . قبلت الحلمتين قبلة خاطفة وكأنني اوجلهما لمتسع آت من الوقت اتريث فيه امام كائنين عزيزين . ومن بينهما رحت اداعب بشفتي وطرف الانف وجبهة الرأس ذلك المنحدر اللحمي الساخن ، مستوفزا كثير الكلام ، حتى انني قلت ما لم يخطر على لساني ذات يوم ولا على بالي . فكل نقطة تماس بيننا مشفوعة بكلمات على شفتي . وهي تضحك وتندفع نحوي .

لم كل هذا اللغو ؟

لقد كان وجيب قلبي مصوتاً جداً . مما جعلني اتشبث بها مزيدا من التشبث . وهي تضحك .

ثم انحدر كلانا . كل الى واد .

مكتبة الفكر الجديد

استيقظت بعد حوالي ساعة من النوم . لم يكن الليل قد حل تماماً . فنهارات الصيف هنا طويلة جداً . كانت كارين تتكلم وهي تفتش عن قطعتيها من الثياب . ولانني لا افهم مما تقول شيئا استهوتني فكرة ان استفيد من هذه الفرصة لاتمهل في دراسة هيئتها كاملة . وجهها . تفاصيل جسدها وحركتها التي تحيط الجميع برقة لا اشك انني على يقين منها . كنت احدق بها مبتسماً . واومىء برأسي بين الحين والحين ، علها تجد في استجابتي حافزا لمزيد من الحديث . قالت اشياء كثيرة لم اكتشف مقدار اهميتها . ولكنها حين توقفت ، وقد نظرت الي فجأة ، مدت يدها الى رأسي مداعبة ثم جلست على الفور . هل اكتشفت شيئا . او تذكرت شيئا ما . كنت اود لو استطيع محادثتها . او اسألها اذا ما كانت ترى في شخصي ما يستحق هذا الحب ، او هذه الصداقة . لم تستهوني الفكرة كثيراً . فكم يُعْزى كثيرٌ من سوء الفهم الى لغة الحديث التي شاءت الصدفة ان نتجرد منها كلانا . ولكن هل تغفر لي اذا ما كشفت لها هوية المتزوج والاب التي اخفي . ام انها لا تبالي بكل هذا!

في طريقنا الى الشارع رأيت (عبدل) في زاويته المعهودة وهو يبصبص متلافيا النظر الينا صراحة او الحديث معنا . ولكن رغبته الملحة لذلك واضحة . فلقد كشف لي فيما بعد ان دهشته أطارت عقله . لان جمال فتاتي الصغيرة لم يكن مألوفا حقا ، في هذا الحي الهجين من احياء لندن . ولانه حشر رأسه في بدالة التلفون لم يستطع ان يرى النظرات الواثقة التي كانت تنبض بها عيناي .

عدت مع فتاتي لبارنا ثانية . والى مقعدينا بالذات . وبعد دقائق من التهام سندويشة الجبن قفزت كارين كالملدوغ وهي تقبلني وترطن بكلمات متعجلة وتشير الى المائدة والى المكان . ثم هرولت الى الخارج .

مكتبة الفكر الجديد

لقد خيل لي انها قالت انها ستعود بعد قليل . وان علي ان انتظر . ولكن مكوثي كالمسطول في ذلك الركن قرابة الساعة والنصف اوحى لي بأن اشارتها الى العودة لم تكن محددة . فهي لم تعن بالتأكيد عودة سريعة في الحال . ولكنها ، يقينا ، عنت المكان بالاشارة . فقد يكون موعدنا غداً او بعد غد من يعرف ؟ وهكذا سوغت لي الانصراف الى النفس وقد اشبعتها « كارين » حبا رقيقا صافياً .

عدت الى الفندق مع قنينة ويسكي وانا افكر بـ« عبدل » هذه المرة . فلا عزاء عند غياب كارين الا بالحديث عنها . ومن ترى يملك من نكران الذات في هذه المدينة ما يُصبّره على الاصغاء لحكايتي غير « عبدل » الذي لم يكن ليخيب املي . كان في زاويته ينتظر عودتي . وما ان ابصرني ادخل باب الفندق حتى قفز كالملسوع : « ابشر ياعم . . . لقد كان يوماً من ايام العمر » .

رفعت اليه يدي انا الآخر مستجيبا بحفاوة . بالرغم من المرارة التي خلفها هتافه . فقد لمست فيه سوقية لا تستحقها تلك الموجة التي جمعتني بملاك .

انتظرت« كارين » في اليوم الثاني من قفزتهاالمذعورة تلك . وقد احتسيت من كؤوس البيرة ما اثقل خطواتي وعكر مزاجي . كان رجل البار يرنو الي بين الحين والحين مبتسما ابتسامة اشفاق مشوبة بشيء من الاحتقار ، لا يستطيع ادراكه الا نحن الكائنات التي تطمع بالمزيد وهي تعرف انها لا تحصد من هذا التجاوز الا الذل . ولكنها تمنح في اللحظة ذاتها ، وهي تتكور على نفسها مثل قطعة قماش مبلولة ، تمنح لكيانها الضئيل معنى يتجاوز حدود الواقع . نعم ، فلقد انطوى

مكتبة الفكر الجديد

صمتي ، تلك اللحظات ، على تمال لم يكن قد ألمّ بي طيلة حياتي السوية السابقة . فأنا رجل بسيط ولي زوجة تنتظرني وثلاثة ابناء . ولكن البيرة التي شربتها دفعت بزبدها الثقيل الى الرأس وجعلتني لا ألمس في هذه الورطة الجلفة الا بشرةً ناعمة قد حملت اليها على بساط ليس من صنعي انا . فللقدر ابطاله وضحاياه . وانا واحد لم اجهد نفسي كثيراً في معرفة الى أيّ منهما انتسب .

في اليوم الثالث رجعت ، ولم اصح بعد من سكرة البارحة ، الى نفس الركن من البار وبصحبة عبدل هذه المرة . ولكن « عبدل » لا يعزّي احدا ولا يُغني عن فقدان . فهو رجل كثير الوسواس ، ولا يقدر على تجاوز هذا الوسواس الا بعد الكأس الرابعة ، فيغدو ، على العكس مني ، كثير الكلام .

حملنا انفسنا ، بعد العاشرة والنصف ، وقد اعلنت اجراس البار الثقيلة النهاية ، الى الفندق ونحن نقترح على بعضنا ان نكمل المشوار هناك . ولكن « عبدل » سرعان ما اختفى . لم اكتشف ذلك الا في اللحظة التي دخلت فيها غرفتي . لم يعد له اثر يذكر . ولم يعد لي انا الآخر من العزيمة والثبات ما يجعلني قادرا على ان اجد ضرورة للسؤال عنه . او ان اميز بين غيابه وحضوره . فلقد وجدت الفراش مشرعا لاحتوائي . واذ انغمرت في رطوبته التي لا تخلو من رائحة عفونة ،لمحت بقايا شديدة الاضطراب من هيئة « كارين » العارية وهي تقف في فرجة الباب وقد كشف ضوء الغرفة الخافت عن حلمتيها وسرتها وشيء من انحدارة البطن وهي تهتز بعنف بسبب كركرتها التي لم تنقطع . .

مكتبة الفكر الجديد

- ٣ -

هل الصباح رباح ؟

زجاجة الشباك تغرق بفيض من نور الشمس . اعزّي نفسي علّني أتملص من ذلك الوجيب المخيف الذي استيقظت عليه ، وجيب قلبي . هل كنت احلم ؟ هل مرت علي سحابة كابوس سوداء ؟ ام هي اغماءة لم يستطع جسدي المنهك مقاومتها فأخذتني في موجة طوال الليل والقتني على ساحل هذا اليوم خائر القوى مهزولا .

ان نَفَسي ثقيلٌ . وثقتي بكل شيء معلقةٌ بخيط عنكبوت .

انني عاجز عن النسيان . ولكنني اضحي بكل ساعات الايام الماضية من اجل ساعة نسيان للايام المقبلة .

ما الذي حل بي ؟

ثعبان يتحرر ويحيط بوجودي كله . أسودَ ناعماً بطيء الحركة .

اتجنب استعادةَ وجه زوجتي . جسدِها النحيل . استلقائها المتعبِ على السرير . جلستها البائسة على الارض أمام موقد الشاي بين ثلاثة اطفال . اتجنب وجوهَ الصغار ، عيونَهم المتربصة المنتظرة دائما . اتجنب دفِلى الدار . زهورها الحمراء الدبقة . وذبابها الذي لا ينقطع ازيزه . الصنوبرَ وحوضَ الماء ورائحةَ الصابون . الغرفتين بالعتبات الخشبية . تنحدر درجتين الى الداخل ، حيث العتمة واشباح الاشياء المستقرة ابداً .

اتجنب السلم الخشبي يستقر على حافة السطح حيث ترقد هامدةً الافرشة المطوية تحت شمس لا ترحم . اتجنب نداءَ الليل ، جاثما كالغبار على الشبابيك وفي الفجوات تحت الابواب . وهو بمزيدٍ من الأسرار يأخذ الكائنات الجافلة من تلابيبها . أتجنب صرخَته المفاجئة .

مكتبة الفكر الجديد

قفزت الى ارض الغرفة ونظرت الى المرآة . كان وجهي شاحبا شحوب الموتى . وساقاي ترتجفان . لقد انتظرت« كارين » يومين متواصلين . ولكنني قاومت فكرة البحث عنها . لأن الحب الذي شدني اليها كان يشبه واحدا من المحبات الكثيرة التي حملت هذا الشراع على موجة لم تتجاوز عرض البحر . فما الذي حل بي اذن ؟

انتزعت السماعة من جهاز التلفون وطلبت «عبدل» . كنت اريد اختبار جهازي الصوتي . ولكن « عبدل» خرج مبكراً الى السوق ولن يعود الا في الظهيرة . قال ذلك صوت يرطن بالعربية . ولم اتكلم انا من جانبي . فالامر لا اهمية له . كنت سأتصل بالزوجة والاطفال . ولكن لا تلفون في البيت . كنت سأتحدث اليهم فقط لاختبر صوتي . هل يعقل هذا ؟ ؟

جلست على حافة السرير واخذت احدق بفتحة الباب الذي ظل موارباً طوال الليل . وتذكرت فجأة بطن« كارين » . كم كان مقدار وهمي . . . . . .« كارين » !

قفزت ثانية وقد خامرني شك بأنني انما أمثل قليلاً . واستجيب لرغبة غير واضحة للتهريج . فتحت الباب على اتساعه . لا احد !! كانت هناك عاملة مترهلة تجلس القرفصاء، وتمسح بخرقة وسخة بلاط الارض بهدوء وكأنها تتسلى . نظرت الي ثم نظرت الى الخلف فلم تجد احداً . القت نظرة كسيرة اليّ ثم عادت الى عملها . ضحكت انا بصوت مسموع . بصوت مبحوح . لا احد سواي وسوى « كارين » وقد تبخرت ، وهذه المرأة وقد ازدحمت ملامحها بالريبة والشك . ضحكتُ ثانية وانا احدق بها ثم اغلقت الباب .

اتجنب استعادة وجه ام اطفالي . تزوجتها ذات يوم مثقل بالسعادة ، وانجبت منها اطفالا في رغبة مثقلة بالاحتكام للعقل والضمير . اتجنب رائحة الخبز يخترق خياشيمي كل لحظة تطلع علي فيها بابتسامتها الراضية القنوعة ، وكأنها تسترضي بي غيظا دائما لا

مكتبة الفكر الجديد

يزول . اتجنب عينين عاتبتين وتغضنات وجه اتعبته الحكمة والتصبر . اتجنب حبا استحال مع الايام الى واجب . ورغبة اطفأتها العادة . اتجنب ثيابها الطويلة تفوح منها رائحة الطعام والحليب . وصوتها وزوايا البيت . اتذكرها ولا اتجاوزها لسواها . ولكن « كارين » . .

- ٤ -

قررت العودة الى بغداد . ان اترك كل هذا الالتباس المضني الذي ازدحم مثل عَرَق الصيف حول رقبتي . لقد اصبح كل «ارلس كورت» الذي يصب في شارع« كروموبل » الذي يستدير هو الآخر ليصب في ما شاء الله من شوارع وجادات واحياء ثقيل الوطأة على روحي . وهي ورقة ذابلة انتظرت لمسة فرشاة مبللة دون جدوى .

كان الافق مفرغا من الهواء تماماً . ووطأته ليست ثقيلة للحد الذي تخيلته . فجسدي خفيفٌ خفةَ ورقة ذابلة كما توقعت . واذا تأوهت بسبب انحباس حسرة في داخل صدري ، فتأوهاتي تكاد تدفعني قليلاً الى الامام او الى الاعلى . وثيابي خفقات اجنحة . هل انا على يقين من أنني لا احلم . وان هذا الاسفلت المبلل هو اسفلت لندن . هو اسفلت شارع «ارلس كورت» . لم اشأ ان اودّع صاحبي « عبدل » بل ان اسمه وهيئته لم يخطرا على بالي . الامر الذي اثار حيرتي حقاً . فعبدل كان امين سري وشاهد عذابي . ولكنه مخلوق نصف مضاء ، قشة لا اثر لتهويمها بين طيات دوامتي انا . ولقد غرق مع من غرق في محيط الخطوات التي خلفتها ورائي . وها انا وحدي اعانق مصيري ، اكثر حرية مما توقعت واكثر رغبة بالمضي قدما ، لا تحقيقا لغاية ، بل

مكتبة الفكر الجديد

استجابة لدفعة الاصابع الرفيقة التي ألمّت بي من الخلف . فأندفعت خطوات ثم ارتفعت بفعل سحرها قليلا في الهواء ثم هبطت ضاغطا على الحصى الناعم الذي يغطي الاسفلت المبلل ، محققا في هذه المسافة الصغيرة ما عجزت كل محبة كارين ان تحققه من الاحساس بالامتلاء .

لم انتظر طويلا . فبالرغم من ان السماء كانت ملبدة بالغيوم . وكان المحيط مشبعا بالرطوبة . وكانت يداي اذا ما رفعتهما باتجاه الافق تعودان مبتلتين . وبالرغم من ان غما قديما لم يزل يتشبث هنا وهناك بين حنايا روحي ، الا ان ثقتي بتلك الدفعة الرفيقة وبتلك الغواية العصية على التفسير في ان ارتفع مزيدا من الارتفاع ، قد طَلَت كل ما هو مؤقت وزائل بالالوان . فلم اعد اتعرف بيسر على صُفّة الشبابيك المتواترة وأعمدة البنايات المرصوفة الى مدى لا يطاله النظر . ولم اعد اسمع باليسر ذاته الاصوات البشرية وغير البشرية . ففي لحظة كهذه لا يجد الكائن متسعا لاي من مشاعر الدهشة او السعادة او الضيق او الخوف . ولكن فقط ذلك الدفق الرفيق من الوعي بأنك وحدك وبأن هدفك هو هذا .

وترتُ اصابعَ قدميّ قليلاً . فأرتفعتُ ثانية بحيث وجدتنُي أطلُ في اقل من لحظة على اكثر من شجرة ، واختفت الشبابيك او الاعمدة تماماً . ثم بدأت العودة دون ان احفّز قدمي لاستقبال حصى الاسفلت الناعم . فلم اجد حاجة لذلك لان الدفعة الرفيقة التي ارتفعت بسببها هذا الارتفاع كانت رفيقة في استقبالي . وواجهتُ ثانية اكثر من شباك واكثر من عمود . ولكن بثياب مبللة هذه المرة ، وشعر مشعث وكأنني قطعت مسافة مائية واعشابا برية . ولم انتظر استكانة على الارض التي عدت اليها . فرغبة العودة الى بغداد اصبحت شديدة الالحاح . فلتكن « كارين » وهماً عابراً و« عبدل » قشة في ريح .

مكتبة الفكر الجديد

وهذه السفرة بجملتها حكايةً منسية . ووتّرتُ اصابع قدمي ضاغطا على الاسفلت بحماس وكأني ادفع بها على رقبة آخر مخلوق خدعني على هذه البسيطة . رافعا بذراعي الى الاعلي مخترقا سحبَ المدينة الواطئة والسماء َالواطئة الى حيث لا يعرف احد هنا ولا في اي مكان آخر . لقد استعدت ذكريات عزيزة على نفسي واخرى ثقيلة الوطأة . ولكن أمرا واحدا ألحَّ علي . سأضع اصابعَ قدمي المتحفزتين على اول «انتريك» اصادفه . فأعمدة الكهرباء واسلاكها ستكون مكتظة هذا الموسم بالعصافير . او ارسل بنفسي هادئا رفيقا الى سطح بيتنا الطيني لأملأ أهالي «العبّاسية» جميعهم بالدهشة . هناك على ضفة دجلة بجانب الكرخ .

لندن ١٩٨٤

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

الموت والعذراء

- ١ -

يستسلم الجميع للنوم منهكي القوى والأعصاب وكأنهم ألقوا في بئر . لا يحدث هذا الا وَجْهَ الصبح من كل يوم . وتكون عمتي قد أعياها الألم فلم تعد قادرة على العويل . او يكون الألم قد استهلك حواسها جميعاً فأصبح بمستطاعها ان تتحرر منه الى نوم لا يعرف أحد مقدار عمقه .

كان النوم يستعصي عليَّ أنا فأظل راقداً متوتر الأعصاب تحت اللحاف الثقيل . أحاول أن أدثر قدميَّ ما استطعت بين ثنيات ساقيْ أمي . أو أندفع اليها لأشعر بوطأة نبضات جسدها تحيط بي . الأمر الذي يعزّيني قليلاً .

هل كان أحد ما يشاركني هذا التماس المضطرب مع الظلمة الثقيلة التي تملأ الغرفة ؟ لا أظن . فصمت الغرفة يشبه غطاء معدنياً يطبق على قِدْر كبير . وتوقع قلق يشدّ كالوتر هذا الصمت أبداً .

مكتبة الفكر الجديد

أراقب خفقات الدخان الرقيقة وهي تغادر شعلة الفانوس النفطي الى السقف . وبسبب الإضاءة الشاحبة أتابع على مهل ، الحواف الكثيرة الباردة التي تتركها اشياء الغرفة معرضة للمسات النار . صناديق ، دولاب كبير ، روازين الجدار الطيني ، الأوراق التي تغطي عورات السقف ، اعمدة السرير الحديدية ، الالحفة فوق الاجساد المستقرة في الزوايا هنا وهناك . والاشباح المتحفزة للايماءة والاشارة أو الهمس .

لم اكن لسوء الحظ استسلم لاشياء الخارج كثيراً ، أشكل منها ما أشاء ، شأن الاطفال : كائنات تتحرك بفعل رغبات برينة . ولكنني ، بينما أجرّد الاشياء من عصمة واقعيتها ، اطويها بخفقة جناح ماكر الى داخل شديد التكتم والسرية ، لتصبح بشوان مخلوقات لا تخضع لحساب . ثَم بسحر الرغبة ذاتها تخرج اليّ عمتي بوجهها المترهل . وعينيها الواسعتين الرطبتين بالدمع والشرايين ، وفمها الصغير الذي يغرق في بركة رقيقة من التجاعيد وانفها الكبير المدور ، وشبح ابتسامتها المشفقة الحنون . ثم دوي عويلها وتوسلاتها . أوه عمتي . ان الموت مخيف . ولكنه أرحم . ثم اغمر وجهي ، عادة ، باللحاف فأكتشف ان الفراغ تحته لا يكفي لكلينا ، رأسي ورأس عمتي المحاط «بالفوطة» و«الجرغد» . فأحرر رأسي ثانية واسكن محدقاً بالفراغ .

ذات ليلة صرخ أخي الكبير من الحجرة الأخرى ، «عَوَه» . . . .طاقته على الاحتمال نفدت . «سأسكن هوتيلا» . ثم قذف بضعة شتائم وسباب . هذه الهفوة لن انساها ما حييت . لا بسبب احتماله النافد ووساخة لسانه . بل بسبب صمت عمتي المفاجيء ، ورقدتها المبكرة ذلك المساء . لقد حدث هذا حوالي الساعة الثانية عشرة أو بعدها بقليل . وبقيت أنا اتطلع من طرف اللحاف الثقيل محاولاً اختراق ذلك الغلاف الكاذب من الاضاءة عسى ان التقط من تلك

مكتبة الفكر الجديد

الهُوى نأمة واحدة . رعشة يدين مستفيثتين . توسلا . طرف أصبع يلمس يديّ . ولكن عمتي كانت وراءها شديدة مع نفسها يعتصرها ألم شاق على امرأة بهذي المرحلة من الشيخوخة . كان أخي هو الآخر ، على ما يبدو ، قد أخرسه هذا الصمت المفاجيء فلاذ بنفسه . ولكنني كرهته منذ ذلك اليوم .

لم استطع ان انتزع تلك الكراهية من نفسي . بالرغم من أنه ، حيث كبر مع الايام ، يستعيد ذكراها معنا بشفقة ومحبة كبيرتين ، الا انني أفاجأ في كل مرة أرى وجهه فيها بتكشيرته وكأنه يطبق على خناق أحد .

ظلت عمتي تحت رعاية ابي - أصغر أخوتها سناً- طوال حياتها . كانت فتاة شديدة الولع بخدمة أخوتها . وظلت عانساً تلاحق ابناءهم بالعناية والرعاية . وعجوزاً سمعنا منها- نحن ابناء أصغر اخوتها- اجمل الحكايات . قلت لها ذات يوم : «عمتي لا تكملي الحكاية . ان مثانتي متروسة . سأذهب أبول وأرجع» . وكانت بعدها لا تكف في كل مرة عن سؤالي : «الحكاية طويلة . هل مثانتك فارغة!» . فأطمئنها أو أسرع الى المرحاض مثل البرق .

هذه الحال لم تنقطع بسبب حالة عمتي الصحية . فهي ما ان تستيقظ صباحاً وتأخذ شايها وتدخل حوارها المألوف مع أمي حتى تخفّ روحها وتستقيم . فهي تتكلم بصوت عال وتضحك مستجيبة لداعي الحياة . وكثيرا ما تحمل مخدّتها الصغيرة التي تجلس عليها تحت شجرة «التكي» ، وسط البيت ، الى عتبة الباب الخارجي فتجلس هناك تتنسّم هواء الشارع الطلق . وتصغي الى النخيل الذي لا تهدأ سعفاته . أو

مكتبة الفكر الجديد

تنصرف الى النسوة وقد التحقن بها ليغذين تيار الحياة الراكد بأمواج اكتراثهن الذي لا يشفع له منطق . في ساعات العصر تتفرغ لنا عادة . تنويعات مع الأهل وحكايات لا تنقطع لنا نحن الصغار . حيث نتزاحم برؤوسنا على احتلال اركان حضنها الدافىء .

ظلت عمتي عانساً بسبب طيبة قلبها . أمي قالت هذا مرة . ولكنها كانت تردد احياناً بأن عمتي لم يقعد حظها كما قعدت حظوظ النسوان . الفرصة الوحيدة التي سنحت لها كانت على يد رجل «سيّد» من نسل الرسول ، طاعن في السن . قالت عمّتي حينها« ان خدمة ابناء أخي أحبَّ الي من خدمة رجل رِجْلُه في قبره» . رفضت الزواج وبقيت في بيت أبي محاطة بطلباتنا التي لا تنتهي :« هذه الحكاية انتهت ذلك الاسبوع ياعمه» . «اشربي الشاي بسرعة» . .« ابعدي دخانك عن عيني» .

اذكر ان جسدها كان شديد النحافة . وعظمة فخذها خشنة تغلفها جلدة ناشفة تنتشر تحتها شرايين غلاظ لها ملمس تحت الاصابع . وجهها يتميز بأنف كبير تكاد استدارته تغطي وجنتيها ، وبعينين واسعتين لا أثر لحدقتهما ، دامعتين وملينتين بالشرايين . قالت أمي انها فقدت البصر بعد الاربعين . كانت بعينيها تضرب الامثال . ولكنها حكمة الله . تحيط وجهها دائماً «بفوطة» سوداء مثل امي ، و«جرغد» اسود لامع تعصب به جبهتها . لم أر شعرها الا مرات معدودة . ضفيرتان طويلتان شائبتان . تعرضهما لشمس الشتاء . حتى لكنت اعجب كيف يتسنى لتلك الرقبة الرقيقة ان تحتمل كلَّ هذا الرأس وهذه الضفائر . حين كنت أضع رأسي على فخذها مستسلماً لسحر حكاياتها كنت اشعر بعظمة الفخذ ملساء تضطرب فوقها الشرايين الغلاظ فلا أجد لرأسي مستقراً .

مكتبة الفكر الجديد

في الليل ، ما ان تنسحب لخلوتها في الغرفة التي بجوار التنور ، غرفة الحطب المخزون لمواقد الشتاء وزيران الخل ، الغرفة المحظورة علينا نحن الصغار لسبب نجهله ، حتى تبدأ حديثها مع نفسها هادئا أول الأمر ثم يتحول بطيئاً الى معاتبة وشكوى . « ان الله ارحم الراحمين . ومن لا يستحق الرحمة! » .«بسم الله الرحمن الرحيم . . اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم . .»« ياكبير الرحمة » . .«خذ امانتك ياالهي » . . «لا تتركني للظالمين » . ثم تشتد عليها أوجاع الليل . صرنا نعرف ذلك بالغريزة . يشدُّ على خاصرتها اخطبوط ما . افعوان أرقش دقيق العنق عريض الرأس يخرج من مخزون الحطب ، ويعالج ذات الجنب والقولنج بالعبث والنهش أو هو يطوي الجسد الناحل برفق ويخفُّ به الى الهاوية فنسمع آهة ارتياح .

سرعان ما نستعيد ، نحن جميعاً ، رقدتنا على الظهر بأنفاس مسموعة ، وكأننا نتأهب مستنفرين .أمي تهمس مع نفسها احياناً ، ولا تحب ان يسمعها أحد «ربي عجل بالصباح » . .« استغفر الله . هذه العجوز لا قلب لها » . وانا ادفع بركبتي المستدقة في خاصرة أمي . وهي تعرف بالغريزة انني انما أفعل ذلك عمداً لاسكاتها .

يرتفع عويل عمتي . تخاطبنا جميعاً . وحينا تخاطب واحداً منا بعينه . مستغيثة . متضرعة . فيما تخف امي - كان هذا يحدث في الايام الاولى - الى غرفتها ثم تعود وهي تتمتم :« لاشيء . خاصرتها تقول . لا أعرف ما الذي يحل بخاصرتها في الليل » . انقطعت عن الاستجابة بعد ذلك . اصبح العويل شعيرة ليلية . لازمة من لوازمه . تبدأ في منتصفه وتنتهي وجه الصبح . وفي النهار لا يجرأ أحد ان يعكّر صفوه بالتفاتة الى الوراء ، الى غرفة الليل النائح واسرارها الخبيئة . ثم ان صفاء عمتي الذي نلتقيه مع أولى رشفات الشاي في الصباح لا يترك لنا رغبة لاستعادة وجهها الآخر الذي لم نره ، طوال حياتها معنا ، في الليل .

- ٢ -

حكايات عمتي لا حصر لها . ولكن آخر الحكايات -ولست على يقين من أنها كانت آخرها- هي حكاية«زفاف العذراء» . قالت :« ان العذراء ليست ام عيسى عليه السلام ولكنها فتاة من الناس تشبه العذراء بجمالها وعفتها . قالت أمي من بعيد معترضة وكأنها التقطت هفوة على لسان عمتي : « يا فاطم ، حكيت هذه الحكاية قبل اسبوعين» . ضحكت عمتي واستدارت بوجهها الى مصدر الصوت مطمئنة .«الاولاد ينسون» .

كانت آية في حسنها وجمالها وعفتها وطهارتها حتى صارت على كل لسان . امها تقول لها : انت درة العقد ، وزينة البنات . وأبوها يوافق على هذا الكلام ويرفض ان يزوجها لأي كان . تقدم كل ابناء عمومتها وخؤولتها ، حتى آخر شاب من معارفها . ولكن ابويها ظلا على موقفهما . وهي سعيدة بهذا الموقف لانها تعرف بالطبع أن البنات اللواتي يصلحن للزواج لسن من طرازها . وان الازواج الذين يذهبون احرارا في اختيار زوجاتهم ليسو احرارا في اختيارها هي . وهي تعرف بالطبع وأمام المرآة بان هذا صحيح منة بالمنة . وبقيت الفتاة سنوات لا يقربها أحد . وهي لا تحس بوطأة لكل هذا .

في يوم من ايام الشتاء نزل القرية شاب بهيّ الطلعة . تبدو عليه امارات الثراء ورفعة المنزلة ووضع عينه على الفتاة وأخذ يسعى اليها . وازداد ولعه بازدياد تمنعها حتى كاد يجن جنونه . جاءها وأخبرها بان هذا معصية لأمر الله . فالزواج نصيب مكتوب على جبين كل فتاة . وهي

مكتبة الفكر الجديد

من خشيتها وخوفها هربت الى احضان امها باكية . وأمها ردت شاكية : النصيب بأمر الله . وهناك نصيب يختلف عن نصيب .

مرت اسابيع وشهور غفل بمرورها الشاب مرارة حبه . وعادت الفتاة الى مرآتها تتعجب لهذا الحسن وهذا الجمال . حتى جاء اليوم الذي نزلت سوق القرية فيه قارئة الكف . لم تبق امرأة في المحلة لم تذهب اليها لتقرأ لها ما قدر الله ، أو عذراء لتكشف لها عن نصيبها حتى جاء دور صاحبتنا التي ما ان التقت عين القارئة بخطوط راحتها حتى اغمضت عينيها جزعة وهي تسأل الله الستر . ثم قفزت من مكانها كالملدوغ .

رأى الناس ما حصل . فاشتد بهم حبّ الاستطلاع . وقفت القارئة وسط الحشد وكأنها تستيقظ من حلم مروّع . اشارت الى الفتاة وقد امتص دمها الخوف : هذه الفتاة سيغتصبها ذئب لا كالذئاب . يلوّث عرسها بدم عذريتها . اللهم أرحم أمة محمد . وخرجت من بين الصفوف كمن يهرب من شرّ مستطير . وغادرت السوق والقرية ولم يرها أحد بعد ذلك .

جمدت الدماء في عروق الفتاة . لفتها أمها بعباءتها وهرولت بها الى البيت . وبتدبير الحكيم اشار الأب ان يخفّوا الى الشاب الذي لم ييأس بعد بينما وافقت الفتاة على الفور وهي تتحرق اليوم لحماية زوج تسكن اليه وتحتمي به من نذير تلك المرأة . فرح الشاب باستجابتهم وأعد يوماً للعرس . الا ان يوم العرس الذي بذل فيه الشاب الثري مقداراً عظيماًمن ثروته ، لم يمنع أهل العروس والاقارب من الوسوسة واتخاذ الحيطة . وضعت حراسة مشددة تبرع بها أهل العروس والاقارب عن طواعية وعن غير اتفاق . فالمحلة احيطت بعيون أمينة لا تزوغ منها قطة سوداء .

مكتبة الفكر الجديد

جاءت العروس بالهلاهل في النهار ثم لحقها العريس في الليل . وما ان اغلقت الباب وراءه حتى حطّ صمت ثقيل على أهل البيت وأهل القرية جميعاً . قدرة الله اكبر من قدرة المخلوق على التصور . ولكن كيف يتسنى لذئب اغتصاب عروس تحت رعاية سيد على هذا القدر من الشجاعة والثراء!!

مرت الساعات الاولى بطيئة ثقيلة . وما ان تجاوزت منتصف الليل حتى ارتفع من مكان لم يتعرف عليه الناس عواء عظيم انتشر كالرعد في الآفاق وانتزع من القلوب كل شجاعة . خمدت انفاس الناس للحظات ثم ضجوا بعدها لا يعرف احدهم اين يتجه . سبحان الله . وكأن الابصار قد عميت . فقد خرج من منزل العروس كل حراسه وانتشروا يسبقهم وعيدهم الى الدروب واطراف القرية ليحيطوها بصدورهم واسلحتهم من عتمة البراري المحيطة .

انتظروا هناك حتى مطلع الفجر ، فلا رائحة لذئب ولا عواء . بدأت اسراب الرجال تعود مطمئنة بعض الشيء . ولكن ريبة دفينة في اعماقهم توسوس لهم .

ما حصل بعد ذلك لم يكن في حساب أحد!

ما ان فتحت الأم غرفة العروس حتى وقعت عيناها على السرير الابيض وقد غرق بدم غزير وعليه أوصال من ثياب العروس ، وكأن آفة لا يعرف سرها الا الله قد ولغت به . لم يعثروا على اثر للعروس ولا للعريس !

واكثر ما أدهش الناس ان الأب المتمنع زوجَ ابنته الحسناء لعريس لا يعرفه . قال انه جاء زائراً وعليه علائم الثراء . ولكن احداً منهم لم يره . فكيف حدث ذلك ؟! .

مكتبة الفكر الجديد

ماتت عمتي ، على ما أذكر ، في الليل .

انسحبت الى غرفتها بجانب التنور كعادتها . وكانت هدأة ذلك الليل ، وقد انتصف ، شديدة على انفاسنا جميعاً . أمي تستدير الي وتحتضنني . فيما تمد يدها لتربت على أخوي الصغيرين . ومن الاركان تصلني انفاس الآخرين مضطربة مصوتة . جميعاً كنا على غير الفة مع هذا الليل الذي لا استغاثة فيه ولا عويل . لم يكن ليلنا . بل هو ليل عمتي وحدها . ليل العواء الأخرس الذي جعلني التصق بأمي مزيداً من الالتصاق . وهي تشدُّ على أطرافي . وتهمس : «نم . ما الذي جرى لك!» .

كنت انتظر وجه الصبح . أطراف النور وهي تتسلل عبر شقوق خشب الباب والشبابيك . انتظر نفاد تلك القطرات السوداء للدقائق وهي تتساقط في بئر ليلنا جميعاً . ولأن نفسي قصير وقدرتي على الاحتمال واهية قفزت من احضان أمي جزعاً وصرخت : «عمتي . .» .

لندن 1983

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

موت الحصيري

- ١ -

مساء الجمعة من شباط 1978 جاء الى قاعة الاتحاد من اخبرنا بموت الشاعر عبد الامير الحصيري . كنت اتوسط البقية الباقية من الندماء الذين لم تفرقهم بعد ظروف المرحلة عن ماندتي الليلية . ارباع قائمة من عرق الزحلاوي وطاسة مليئة بكسر الثلج التي لا تخفي مياهه الذائبة لمسات الاصابع الكثيرة . وحول هذه القاعدة تتوزع المازة الفقيرة . رؤوس خس . كاسات لبلبي . كاسات لبن . علب دخان محلي . وبضعة كتب منسية على اطراف المائدة . ونحن الذين نتحلق حولها نسارع بعد كل رشفة من الكأس الى ملاعق المازات لنزيل باللبن واللبلبي طعم العرق ورائحته من حلاقيمنا . ولكن ضرورة العرق تسد كل منافذ الهرب المتوهمة . ويحيط وجودنا كلّه برائحته وطعمه كما يحيط الافق الغائم شجرةً على مرتفع .

نقول « كاسك » في الغفلة . وفي الانتباهة لا يطيق احدنا مراسيم المودة التي لا نجد ضرورة لها .

مكتبة الفكر الجديد

- « جاء البارحة . وقف على عادته في المدخل يحيط الجميع بنظراته وكأنه يتخير ضحيته ، كما كنت تقول ، قبل ان يترجل عن كبريائه . ان اوهامه لا حدود لها مثل قصائده . جاء شديد الحيوية شديد النشاط . هو الذي ينهي تجواله الطويل ببوابة الاتحاد هذه . ينطلق من فندقه المجان في ساحة الميدان . قاطعا شارع الرشيد حتى الباب الشرقي ثم شارع ابي نؤاس وهناك تبطىء حركته . لا يخلف باراً وراء خطواته يعتب عليه . يدخل ويتخير نديما يفرض عليه الضيافة . يقرأ له قليلا من شعره بعد ان يكون قد شرب كأسه المحببة » .

- هل تستحضر شيئا من شعره ؟

- « بيت واحد »

- ماهو ؟

- « لم يبْقَ مُـرتَبعٌ بكرٌ ولا قَـدحٌ طفلٌ ولا حَـانةٌ في الليلِ عذراءُ » .

- ضربه احدهم قبل ايام حتى ظننا انه هالك .

- « يحدث هذا دائما » .

- ٢ -

لم تكن هناك موسيقى . رائحة الرطوبة من احذيتنا الموحلة ومن الكنبار الرث تحت كراسينا الالمنيوم تختلط برائحة المراحيض التي تكاد بابها بسبب الحركة تخلو من اية اهمية . ورائحة العرق والاحقاد الدفينة تخدّرُ الجلدةَ الناشفة تحت ثيابنا . جدران قاعة الاتحاد جرداء عارية وتزيد عريها كثافة لون دهان رمادي كابٍ . هنا وهناك تجد رقعا من الصبغ مهترئةً بسبب كثرة الملصقات والشعارات التي تُستبدل كلَ

مكتبة الفكر الجديد

اسبوع تقريباً . وفي كل جدار تجد بابا او بابين . وهي أبوابٌ مغلقة ابداً . يرن وراء احدها تلفون في اوقات متباعدة فيفزع الجميع وتستدير رؤوسهم الى مصدر الصوت ثم يستعيدون تلك الهيئات المستَفزَّة ولكن بصمت .

السقاة لا تنقطع حركتهم . « نص ربع اضافي عيني حسين » . .« ماء لبلبي حار وحط حامض عليه » . . « الثلج خلص هنا » . وهم لا يستثقلون الطلبات بل تأخذهم حمى الحركة مع كثرتها . واحيانا يقف فجأة اثنان او اكثر من اثنين في مواجهة بعضهم البعض ، ويصرخ احدهم في وجه الآخر ثم يقفز من الجوار آخرون يباعدون بينهم ويفرقونهم عن المائدة الواحدة .

ويدخل الحصيري . يجلس معي بعد ان تتحاشاه جميع الموائد .

ـ ٣ ـ

تلك الايام الاخيرة قبل الخروج كانت منقوعة بوحل لا يحيطه البصر . مستنقع تطفو فيه الايام كالجثث . موت خفي قد يجتهد احدنا بسماع نبضه في قصيدة يكتبها او اغنية ينشدها في الليل . ولكن احدا لم يجرؤ ـ اذ يبصره عيانا ـ ان يصرخ « ها هو . . .ها هو » .

وفي مساء الجمعة من شباط جاء من يلقي بيننا ، كمن يضع اجابةً مثالية ، جثةَ المخلوق الذي حقق بموته الجسدي انجازا رمزيا فائق الكثافة . لقد كان موته الذي توج به عثراته نذيرا لجيله الذي توّجها بالخروج . ان الموتَ رمزٌ غيرُ صخّاب ولا جلبة فيه . كلمةٌ على ورق . اما الخروج فَجَلبتُه أحاطت الوطنَ كما تحيط الحدود .

مكتبة الفكر الجديد

نحن جيله . جيل 1958 . وعبد الامير الذي بدأ انحداره بالادمان انما كان يشرب عنا جميعا مهما تفاوتت الاعمار . خطواته الكاذبة في ثباتها هي خطواتنا . ومعطفه الرث المبلول هو معطفنا . وكم جزعنا من تكرار البدائل الفنية في الاستعارة والمجاز محتفظين بهيناتنا المتوازنة . في حين كان يطوّحُ على الارصفة طوال الايام عابثاً بالبقية الباقية من لياقتنا . ومستغرقا بتوطين النفس على اليأس .

كم رأينا . كما يرى المأخوذ . تحت معطفه الفضفاض جيلنا جميعا . فكأنما هيأت ارض النجف السرية لجيل انكرت عليه الاقدار العابثة ان يكشف صراحة عن شهقة الامل او اليأس بديلاً موضوعيا يشبه الاسطورة . لا يكشف عن الشهقة ، شهقة الانكسار والتردي ، بالعبارة الفصيحة بل بالفعل العفو الذي يشبه فعل الحياة . هل كان اكثَرنا عرضة للخديعة او اكثَرنا قلبية ؟ من يدري ؟ ولكن جسارته لا حدود لها . فقد اعلن ، بمحض ارادته ، خيبته ولم يوارب .

اعلن انهياره وعانق العتمة .

ما اقسى الفضيحة يوم اكتشفنا في شباط ١٩٧٨ اننا طوينا عقدين من الزمان في مقاعد المتفرجين ، وان خشبة المسرح تضج به وحده . لم تكن تتسع لنا جميعا ؟ ولكن حقنا بالعزاء لا يضاهى . فالاعتراف بالموت مهمة شاقة . كم رفعنا رؤوسنا الى الراية . الى ثقوب الرصاص التي دبّت فيها . وسخام الفِتَن التي احال لونها الى رماد .

كم بدا طعمُ العرق رائقا .
وكم اشفقنا على انفسنا .

مكتبة الفكر الجديد

- ٤ -

اذكر انني كتبت قصيدة نشرتها تحت عنوان «وجه» . كان ذلك قبل موت الحصيري بسنتين او ثلاث . لا اذكر ، تماما ، اذا ما كُتِبتْ في «كاردينيا» او« مقهى المُعقّدين» . فيما اذا كان الوقت ليلاً او نهاراً . فـ «كاردينيا» كانت خمارة الليل . هناك اجد من ينتظرني . يرفع يده من بعيد حين ادخل فأعرف مكانه . آخذ مقعداً مناسباً واجلس حتى يشتد الليل . و«مقهى المعقدين» تتوزع ساعات النهار . مقهى صغير في احد مخارج الباب الشرقي الى ابي نؤاس . حُشرت فيه المقاعد الخشبية المستطيلة والكراسي والناس والتلفزيون وموقد الشاي وصندوق الثلج والدخان والكتب التي نهملها عادة جانبا لحظة ندخل . اكثر روادها المألوفين اصحاب قراءة وكتابة ونشاط عاق في الاغلب فهم لا تخطئهم العين . افضّلُ الجلوس في مقاعدها الخارجية أواجه بائعَ الكُبّة ، وأرقب المارة . محتسيا بتمهل شاي ابراهيم المتميز .

لا اذكر تماماً قصة كتابة القصيدة . ولكن ما لا انساه ان شخصاً ما لا اعرفه كان يتحيّنُ كلَّ فرصة لقاء على مقربة من «مقهى المعقّدين» او مقربة من« كاردينيا» ليستوقفني وعلى وجهه ابتسامة من يخفي سراً . ابتسامة كانت تبعث الريبة والخوف في قلبي . يسألني بلهجة هامسة لا تنم عن حسن طوية ، لهجة خالية تماماً من الود الذي نألفه في الصوت الواضح الصريح :

- من هو يا استاذ ذلك الذي يسارع كي يترك البار
وينطوي بزهرة المجهول ؟

مكتبة الفكر الجديد

كنت اعرف انه يشير الى ابيات بعينها في القصيدة « وجه » . ولكن مفاجأته وغموض مقاصده جعلتني ، بفعل مزاجي المرتبك تلك الايام اضفي بعدا ارتيابياً غير مرغوب فيه لتلك العلاقة المألوفة بين القارئ والشاعر . لم اجبه مباشرة . وقفت اوارب النظر لملامحه وعينيه علّني اكتشف السؤال الآخر الذي يتخفى وراء هذا السؤال .

- انني اعنيه . اعني أيَّ أحدٍ منا جميعاً .
ولكنه يسارع هنا . يداه في معطفه المبلول
ثم يولي ملغيا كل المواعيد ولا يقول .
لا يا استاذ . انه لا يعني أيَّ أحد . أيُّ احدٍ هذا . . . . يبدو لي تعبيرا مخادعاً او خالياًمن المعنى .

قالها شبه هامس . وأخذ نفساً عميقاً من سيكارته جعل تقاسيمه تأخذ سيماءَ مستغرقةً وجدَيّة . رمى السيكارة على الارض وهَرسها بحذائه ثم استدار وغادرني .

لم أتبيّن ، وانا أتجنب النظرَ اليه وهو يغادرني ، وجهَ المُعجب فيه أو المُستريب أو المجنون . بل أخذتني بفعل مباغتته دهشةٌ مريرة . لقد تقبّلت اهتمامَه بالقصيدة ، وهذا حق من حقوقه ، ولكنني لم اتقبل تساؤله المستريب المتشكك وعدم قناعته بتفسيري انا . « لا يا استاذ . ان أي احد يبدو تعبيراً مخادعاً » .

في المرة الثالثة او الرابعة التي استوقفني فيها هذا المخلوق بغتة ، ثم غادرني ، اخذتني رعشةُ حمّى حقيقية . حمى فزع متأصل جعلت فرائصي ترتجف . واذكر انني رجعت ، حينها ،ثانية الى البار لأشرب كأساً اضافية واستعيد المشهد على مهل .

مكتبة الفكر الجديد

قرّبتُ اليَّ كلَّ الاجتهادات البيضاء التي لصالحي . هل كان شغفه بالنص ؟ رغبته الخجولة في التعرف علي ؟ ام حياؤه الذي تخفيه تقاسيمه الباردة فلم اتبينه ؟ ولكنني وراء كل اجتهاد آخذ رشفة عرق متوترة واحدق في ابتسامة عينيه الشاحبة التي تلاحقني .

كان هذا آخر فقدان . فقدان العلاقة النورانية بين القارئ والشاعر . العلاقة التي هي تعزية في الشدائد وغذاء لا ينضب معينه . فكيف يحسن بي ان اكتب وانتظر ؟ وقد حل الاستفهامُ المتشكّك المرتابُ محلَّ السؤال المتعطش ، والابتسامةُ الشاحبة محلَّ ابتسامة الرضا ، والشبحُ الذي يوقفك فجأة ويُغذيك بالحُمى محلَّ الكائن الذي يلقي بقلبه بين يديك .

في « كاردينيا » وعبر زجاجة الواجهة رأيت ذلك المخلوق يقف على الرصيف الآخر يلتفت الى باب الحانة كل حين . ويدخن سيكارته بهدوء . قلت لأحد اصدقائي وهو يصغرني سناً عما اذا كان يعرف ذلك الوجه . ولم اخف عنه مخاوفي . لم يبد على صاحبي انه فهم ما اذهب اليه . ولم الح انا من جانبي . قلت له : « نحن مخلوقات مهزوزة على ما يبدو . ومخاوفنا لا مبرر لها » . قلت له : ان الانسان ليرتاب حتى من اخيه اذا قال : ماذا تقصد بهذه الاشارة وبهذا الايماء . والح بالتحقيق . وطوى نواياه وراء ابتسامة العارف . ان طلاقة المحيا ضرورة لكشف النوايا الحسنة . حينها قال لي صاحبي ، وهو يعيد دراسة هيأة المخلوق الثابت على الرصيف المقابل : « معك حق . ان الظروف تغيرت كثيراً . وعلى الانسان ان يحترس » .

في الاربعاء ، مباشرةً بعد الجمعة التي مات فيها الحصيري ، اقيمت في قاعة الاتحاد امسية تأبينية كنت احد مدعويها لالقاء

مكتبة الفكر الجديد

مرثية كتبتها على عجل بالمناسبة . ولأجل ان اعالج اضطرابها قليلاً أجّلتُ دوري في القراءة الى نهاية الامسية . ولكن القصيدة استعصت علي وبقيت بين يديّ مضطربةً شديدةَ الفوضى . ولكي اتجنب هذا المأزق قررت مع نفسي ان اتحدث مع الجمهور شفاها ، وان احاول تطعيم حديثي بشواهد من شعر الفقيد ومن قصيدتي غير المكتملة . كانت القاعة تضم صفوةً من محبّي الراحل ، وقد توهجت عيونهم .

من وراء المكرفون ، وقد أحطت الجمهورَ المستسلمَ بكل ما املك من وجدان متعاطف ، رأيت وجه ذلك المخلوق يطل علي من بين الوجوه . وقد ثبّت عينيه في عيني . ولم تخفِ اللحظة المؤسية الشجية تلك الابتسامة الشاحبة المرتابة على تقاسيمه . يسألني ، وكان صوته يملأ فضاء القاعة الخانق بالدوي . لم اجرؤ على الحديث . لم اجرؤ على توزيع نظرتي الأسيفة على المخلوقات المحترقة ودخانها الشائع . بل اليه وحده . ولم اخف تحديقتي الذاهلة ، وجدتني ، بفعل وازع غير عقلاني ، اقرأ قصيدة « وجه » (أنظر ملحق رقم ٢) وكأنني اجيبه اخيراً . كأنني اوقف بقبضة يدي ذلك الفم عن التساؤل وتلك التقاسيم عن الارتياب . كأنني ، وقد فزعت الى الحضور الاكيد لمحبي الشاعر استلهم منه الشجاعة والثبات ، قد اخرست ذلك الوجه الى الابد . بقي هو مشدوداً الى صوتي ، وكأنه يصغي الى اجابتي . الى ان انتهيت . ثم استدار وانصرف على عجل وقد شحب لونه وجفت ابتسامته .

بعد ايام من امسية التأبين خرجت في « الخروج الكبير » مع من خرج . وعبرت الحدود .

مكتبة الفكر الجديد

بعيداً عن «مقهى المعقّدين» و«كاردينيا . عن «قاعة الاتحاد» . عن منحدرات «ابي نؤاس» الى الشاطيء الرملي حيث لا زوارق ولا سابحين . . بعيداً عن اعمدة « الرشيد » (أنظر ملحق ١) ، وقد اكسبتها لمساتُ المارة حضوراً حاسماً ، رتيبةً تتابع من الباب الشرقي الى الباب المعظم ، ملقيةً على اكثر الاماكن تورية مزيداً من العتمة . عن مخلفات بائعي شوربة العدس تحت «النصب» في لحظات الفجر . عن« مقهى البرلمان » ورائحة الجرذ الجاثم في الركن المعهود . عن الساعة المتوقفة فوق حيطان آمالنا . بعيداً عن العمل الرسمي وصدقات الدولة . عن الهوية التي نسكنها وراء القضبان . عن اوراق الشاعر ، يتناقلها سكيرو الحانات علانيةً فهي مغلقةٌ ودِلالاتها مستورة . بعيداً عن شباط وعن الفضحية التي اعلنت موت جيلنا . وعلقت آخر نجومه مطفأةً على بوابة الخروج .

بعيداً ، وفي حانة اخرى ، وبصحبة النفس هذه المرة ، اخرجت المرثية التي لم اقرأها في اربعاء التأبين فكشفت عن جوهرها الهجائي الشائع في شعرنا العراقي وابقيت عليه ، واحطته بالتفاصيل . ثم نشرتها تحت عنوان« محاولة بحث عن عبد الامير الحصيري» . وكنت على يقين ، بعد التحاقنا بهذا المنفى ، ان عبد الامير قد سبقنا اليه منذ سنين .

لندن 1968

مكتبة الفكر الجديد

ملحق (١)

يمتد شارع الرشيد ، في الليل ، مثل سمكة كبيرة . تستعيد حيويتها ونشاطها نهاراً . حتى لتبدو العظام وقد كسيت ثانية . اما في الليل ، فأن الشاطيء الاجرد الذي تقذفها عليه الامواج سرعان ما يحيلها الى هيكل تخترقه الظلمة من كل جانب . ظلمة الارواح الراقدة . ظلمة الماضي .

ولو ان للسير في شارع الرشيد اتجاهات عدة اذن لاتيح له ، وهو يقبع في الركن المعتم ، ان لا يرى في ضجيج قوافل السيارات المسرعة والمارة المتعجلين هجرة وداع لشارعه المحبب . ولكن تقاطع اصوات السيارات والمارة لم تترك لتلك العين الجافلة مجالا لسحر الخيال . ولذلك انحشر مثل قطعة اثرية ، وقد القى عليه جامع الحيدرخانة ظل تاريخه كله .

وفي عتمة شارع الرشيد ـ وهو يعتم بصورة مبكرة ـ لا تجرؤ النفس على تطواف مثل تطوافه . حيث تُلمّ بالسمكة روح مستقل حتى ليكاد يشم رائحة زيت ثقيل . وبين عظمتين منحنيتين كالقوس يمتد منخفض رمادي الى حيث يسمع وقع احذية صندل وقباقيب خشب . فتحات ضيقة تصل بدورها الى مداخل تذكره بالمداخل المضببة للّواوين الحّمامات العامة .

عند هذه العتبات ذات الحواف الحمراء المائلة الى الدكنة تنفجر همهمات ترحيب وتحايا . وتنطلق روائح زعفران وحرمل وبخور وتتناثر شأنَ الهَوام غلالةٌ من الباودر على اكسية بيضاء ، تكاد تفصلها عن الاجساد نصف العارية تيارات هواء دون صوت . يسمع احد الاصوات :« ان جفاف ايام الصيف يذكرني بوجهك المقفل . والجفاف

مكتبة الفكر الجديد

البارد لايام الشتاء يذكرني بقلبك الجافي » . والصوت الآخر :« وبمن اذن تذكرك هاتان الحلمتان وهذه الشامة على البطن . هل فقدت ذاكرتك الى هذا الحد » .

ان صفير الهواء يأخذ بأطراف الثياب والاردان ويهم بها الى الداخل . وهناك تتوزع الهينات البيضاء على الزوايا والاركان وتحت المنحنيات المطلية بالجص ، بحيث يسهل على استدارة الحوش المبلطة بالطابوق ان تكون حركة رقص او ما يشبه الرقص .

يخرج احدهم من كسائه ، عارياً ، وينفض من بين اصابعه اوراقاً ملونة . يعود فيتلقفها ثانية ، شأن الساحر ، ثم يوزعها على ثلاثة آخرين ، يخرجون لتوهم من الاكسية المنتفخة « بالكساء الابيض ذاته » . ثم يعود الاربعة بأكسيتهم الى اماكنهم بينما يخرج آخر وقد ملأ فمه بنشارة الخشب او ما يشبه نشارة الخشب . يدور على نفسه عارياً . حتى تنقطع انفاسه . فينفث النشارة من فمه حتى تملأ الفضاء كله . اجساد تترك اكسيتها ، عارية . ثم تعود اليها داخل استدارة الحوش المرصوف بالطابوق .

تعود التيارات ، تيارات الهواء ، بين الاكسية والأجساد . انتفاخات صغيرة مصوتة تصحبها ذرات هوام الباودر . ومن ثم روائح زعفران وحرمل وبخور تتناقل كالأوتار همهمات الوداع . حيث تطلقها مداخل اللواوين الى الخارج .

يقترن الفجر بمشهد هيأته التي تقبع في الركن المعتم عادة . وهو يرقب حركات المرور وقد استعادت تقاطعها في الرواح والمجيء ، بحيث لم تترك لتلك العين الجافلة مجالاً لسحر الخيال .

مكتبة الفكر الجديد

ملحق (٢)

الآن اجدني ملزماً على نشر القصيدة ثانية بين ايديكم لاصرف ذهن ذلك المخلوق ان امكن ، عن يقينه الذي أملته عليه امسية الاربعاء . ولأكفر عن ذنب اقترفته بحق جمهور كان يصغي لقصيدة لم أكن قد كتبتها بالمناسبة .

قصيدة « وجه »

تَوهمتُ وجهَكَ بينَ المرايا
وجوهاَ .
وها أنتَ تفقدُ ، جزءاً فجزءاً ، جميعَ الخلايا .
صبابتُكَ الآنَ تطفو بكأسكَ .
أحلامُك المُفْخنات تُسارعُ كي تتركَ البار .
كلُّ الشوارع تصبو اليك
وأنتَ امتدادُ الشوارعِ في مقْعدٍ لا يحَركَ ساكنْ .
وبردُك طيَّ الاصابعِ .
ماذا تقول إذا غادرَ البرد ؟
وحدَك ؟

في الساعةِ الواحده
يتركه ، البارَ الذي يُقفلُ والكرسيَّ والزجاجةَ البَارده .
وفي الرصيف يرتمي بزهرةِ المجهولْ .

مكتبة الفكر الجديد

منطوياً ، يداه في معطفهِ المبلولْ .
ثم يولّي ، مُلغيا كلَّ المواعيدِ
ولا يقولْ .

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

الباب الثالث

العودة

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

الحقـائـب

١ ـ المقدمة

إذن ، فانت توافقني على اغلاق الباب والاحتراز من الاستجابة لأي طارق . الشمس تنسحب تماماً عن الافق الغربي . فالستارة أعتمت الا من الجانب الذي يبدو على مقربة من «نيون» في ركن الحديقة الخلفية . الحديقة تطل على النهر على ما أظن . سمعت احدهم يشيد برفاه العمارة هذه الايام . المدينة لم تعد هي ذاتها . اصبحت مدينة مقاولين ان صح التعبير . مدينة المقاولين لا اسرار فيها كما تعرف . الاسرار تقتصر على المدن التي تنمو في غفلة من التاريخ . هذه المدينة نمت على هذه الشاكلة ، فنضجت دروبها وأزقتها وأسواقها في الظل ، وفي العزلة ايضاً . عزلتها اضفت عليها ضرباً من التعالي والمكابرة . هل سمعت بسوق «الشورجة» ؟! أو الاحياء التي تشبه دغلاً . روح المقاول مشوبة بأهواء المنتقم اللامبالي المستخف . المقاول لا ينضج مع مدينة في ظل النسيان ،بل يفدُ اليها ، عادة ، من خارجها . يأتيها غازياً مجهّزاً بعُدة الكراهية . انه

مكتبة الفكر الجديد

يفتح على الورق طرقاً جديدة ويخترق الافق بأعمدة الاسمنت . ولكنه ، في شحنات روحه المستفَزة ، يفجر بديناميت كراهيته ادغال الاحياء الغامضة وأزقتها السرية ويلغي من مرايا الافق كل انعكاسات السطوح التي لا يحدها البصر . ديناميت الكراهية يأخذ اشكالاً عديدة ، لعل اكثرها تضليلاً الشكل الذي ينفعل باسم الجديد وباسم المستقبل . المقاول مستقبلي بالضرورة . لا يميل الى الماضي بفعل ارتيابه منه . فالماضي جذر الاسرار التي تتشعَّبُ عروقها في الحاضر فتمنحه الجلال الذي يستحقه . المدينة ذات الاسرار هي ابنة الماضي . المقاول يرتاب من اسرارها ارتيابه من الماضي . فهو لا يملك إلا ان يجتثّها ، اذا ما استطاع ، من عروقها . وأحسب انه تمكن من ذلك هذه الايام . الاسرار تريب الوافدين والغزاة . الدولة لا تكترث لهجائيها دائماً ، انها تنتفع منهم احياناً ، بل توظفهم اذا شاءت الضرورة . انهم عقد مصالحة بين السلطة والناس . ما أشبه هؤلاء بمدينة المقاول . كلاهما يخلو من الظلال والاسرار . السلطة لا تضيق بالكلام الجديد بل تعززه وتفيد منه . اكتشفت فراغ صرخته المحتجة المفتعلة . انها بالمقابل لا تطيق الكلام الصامت . كلام الحكمة الذي يُثبت اشياء الطبيعة باسمائها ولا يكترث لفوضى الشكل . الكلام الذي يشبه الدغل ، دغل الاحياء والازقة والاسواق القديمة . اذا اردت مني ان اختزل كل هذا الذي اقصده بكلمة فسأقول لك انها : «الفن» . دعني أوضح ، قبل ان يلتبس عليك الأمر ، ما أذهب اليه بشيء من الاسهاب . ان الفن يضطرب بطاقات عديدة : احدى طاقاته مخاتلةٌ . وهي بفعل مخاتلتها تتضارب مع طاقة الحياة . تلك الطاقة اذا ما انفردت بفنان - اي فنان- فلونه الشاحب المكترث سينشف لصالح وجه آخر هو محض قناع . التجربة تنشف بهذا الفعل لصالح الصنعة والتقنية . المقاول يبشر بالصنعة والتقنية ، يبشر بالفن «الجديد» ويبحث ، ابداً ، عن الجديد المضاف . اذ لا قيمة عنده

مكتبة الفكر الجديد

للتكرار ،(التكرار مريب هو الآخر شأن الماضي) ،أو الشبات الذي يفري بالالتفات الى الوراء . انه يتعجل الخطوة الأخرى ، والأضافة الأخرى لذاتها . . مدينة المقاول تنجب شعراء ورسامين ومثّالين وموسيقيين ومغنين ومسرحيين وراقصين وكتاباً على الشاكلة ذاتها .

٢ - النص

اذن ، فأنت توافقني على اغلاق الباب والاحتراز في الاستجابة لأي طارق . . الشمس تنسحب ، تماماً ، عن الأفق الغربي . فالستارة اعتمت الا من الجانب الذي يبدو على مقربة من «نيون» في ركن الحديقة الخلفية . الحديقة تطل على النهر(سمعت احدهم يشيد برفاه العمارة هذه الايام . المدينة لم تعد هي ذاتها) في ضفته الغربية . ضفته الغربية تواجه – اذا ما واجهت النهر– مغيب الشمس في اكثر حالاته صفاءً وتأثيراً . فتوهجه ، بحكم اقتصاره على حيز غير ارضي ، انما يشكل رؤيا حقيقية . رؤيا ملء البصر لا تشبه بجلالها ، ابداً ، الأتون الجسدي الذي سببته ظهيرة اليوم . .

ياالله . . ، هذه الستارة تعتم والمدعوون ينصرفون الى اكثر ساعات اليوم حميمية وألفة . بعد عناء الطيران والتجوال في ظهيرة صيف لا مثيل لحرارته . نحن ، وحدنا ، لم نغادر غرفة الفندق . أنا لم اغادر غرفتي أبداً .طلبت وجبة غذاء خفيفة الى هنا . أخذت حماماً بارداً وقضيت الظهيرة أحدق في السقف . بعد ان تركت متعجلاً ، كمن يرتكب مأثماً ، ورقتي على باب غرفتك . كنت اعرف انك ستستجيب

مكتبة الفكر الجديد

من النافذة تماماً . هذه الرغبة التي تركتني أحدق في سقف الغرفة الظهيرة كلها . وكأني أحدق في مرآة أكلها الصدأ احدق واستعيد فيها كل الحقائب العائدة . الحقائب التي جئت أحدثك عنها هذه الليلة . حقائب العائدين .

في قاعة الحقائب لم التقط عائدتي الا بعد قرابة ثلاث ساعات . الأمر حدث للجميع كما أظن . لك وللجميع . لقد شكل الأمر حرجاً واضحاً للمسؤولين . جاء أحدهم واعتذر مني . قال ان اعتذاره ينحدر من الوزير مباشرة . قلت له ولكن الحقيبة التي التقطتها ليست حقيبتي . تحقق معي من الأمر فوجدني على وهم . فتطلب ذلك اعتذاراً خاصاً . . قلت له ان مشاق السفر ومشاق البحث بين الحقائب وهذا الصيف الجاف اللعين قد اضعفوا مدركاتي جيمعاً . هذه الحقيبة وقد حال لونها قليلاً ليست على ما كانت عليه . فهل تتقبل اعتذاري . لم يجبني وانصرف مبتسماً للاعتذار من آخرين . لحظتها حملت الحقيبة الثقيلة ، بل جررتها ، من بين الحقائب المتراكمة ورحت أعلو معها فوق ركامهن وكأنني محارب يجاهد بنَفس لاهث اجتياز الآف الجثث . هل فاجأك هذا الخاطر مثلي !!

ما أشد ما كان البهو خانقاً . قلت لنفسي وانا أحدق فيه :
انها روح العودة وقد تكشفت ، بعد منفى طويل ، على هذه الشاكلة .
انفاس عشرات الآلاف من الساعات .
ملايينٌ من الدقائق ، وقد تزاحمت في بهو واحد .
يحدث مثل هذا في الذاكرة .
الذاكرةُ بهوٌ خانقٌ احياناً .

مكتبة الفكر الجديد

قد تُفاجأ باستعادة ذكرى ولكن هذه الاستعادة المفاجئة ليست الا حشرة طارئة سرعان ما تسقط على بلاط البهو دون صوت . ويحدث انك تحدق في هذا البهو فلا تقع الا على اشباح كائنات واشياء . ولكن أمراً واحداً لا تتركه يفوت رؤيتك الدقيقة هو : الزحمة . زحمةُ ضربٍ واحد من الكائنات أو الاشياء . يتتابع ويتراكم ويتواصل ويتضارب ويتلاحم ويتقاطع . تتسربُ انساغه ببعض حتى يبدو كتلة واحدة . هذه الزحمة لا تأخذ امتداداً زمنياً لانها داخل البهو بين جدران لا تخضع لمقاييس الارقام بل لمقاييس الوجدان . انها لا تشبه ما يحدث عادة في الاحلام .

الحلم ليس بهواً كما تعرف . انه يقظة من نوع مختلف .

الذاكرةُ بهو . بهو خانق ، حقيقي .

داخل البهو توقفت . بل قل استسلمت لليأس . أمر اجتياز كل هذه الحقائب لم يكن ممكناً . أسندتُ حقيبتي على كومة من الحقائب ورحت أبحث عن معونة . كان بعض الافراد ، وقد زُرعوا مثلي بين الحقائب ، كجنود مجهدين بين الجثث ، يستسلمون هم ايضاً لذات المصير . تبادلت مع اكثرهم ابتسامة لم تكن ودية تماماً . ابتسامة لا تنم عن رغبة بالمشاركة . كان كل واحد منا يعرف ان المشكلة ليست بالحجم الذي يتطلب احتجاجاً جماعياً . تجنب مشكلة الآخر يتطلب ، على العكس ، ابتسامة قنوعة وانتظارَ معونة خاصة . كل واحد منا كان ينتظر نداءً باسمه . حدث هذا مع بعضهم ، ومعي في وقت مناسب . قال احدهم اترك حقيبتك وأقفز عبر هذه الكومة الصغيرة الى بَوابة الخروج . سأتبعك بها حالما تصل الرصيف الخارجي . استجبت لندائه قافزاً عبر كومة الى جواري . ما أدهشني ان لون حذائي الجلدي كان يشبه الى حد بعيد ، وقد غرق في تجاعيد الجلود المتلاحمة ، لون كثير من الحقائب . تذكرت انني لا أملك حقيبة جلدية وضعت يدي في جيب

مكتبة الفكر الجديد

سترتي الداخلي وتحسست جواز سفري احتياطاً . شعرت انني اجتزت خاطرة من هذه الخواطر السوداء . المخرج الذي اتجه اليه بوابة زجاجية محاطة بمعدن فضي . داخلها يبدو الأفق ، وقد احتل الثلث الأعلى ، اشبه بصفيحة معدن تحت الشمس . بينما يمثل الثلثان في الاسفل شاشة من الالوان القاتمة . لم اكن بينهما ، كنت امامهما ، اتقدم متعثراً وقد اصبحت ملابسي المعروقة أشبه بأسلاب انسان ضال في مفترق طرق . استعدت مشهداً كهذا ايام زمان ، في هذه المدينة ذاتها قبل عشرين عاماً . كنت في هذا الأتون ذاته . خرج الي صديق بغتةً واختطف من يدي مفتاح غرفتي الوحيدة . قال لا تفوت علي فرصةً لا تعوض . عرفت انه يعني امرأة . خرجا معاً من الدائرة وحرضها على ملجأ لا يتجاوز في أمنه وسريته جدران غرفتي التي استأجرتها من صديق في بيت شبه مهجور استأجره هو بدوره من أحد معارفه . كنت في أتون وسط العاصمة . ومع المفتاح افتقدت كل طريق . شعرت حينها انني ضال . نعم . فقد أضفت سعادة صديقي الطائشة وانانيته مزيداً من مشاعر الاضطهاد ، وكأنني على حافة سكين لليأس أو سكين لظهيرة لا ترحم . وما الفرق !!

كنت مفلساً حينها وقد جُردت ، رغم افلاسي ، من زاويتي الأخيرة وسريري الأخير . جردت ، ان شئت ، من غفلتي . نعم كأنني استيقظت فجأة على القسوة الضاربة للحياة . ولم تكن الظهيرة ذاتها الا سطحها الظاهر . ماذا أقول لك . تلك اللحظة لها اخوات في حياة كل منا . نحن الذين ننتسب لهذه الارض . وما هذه الظهيرة الا واحدة منها .

كان أحدنا كالجاموس . يبرك في الماء الضحل ساعات ، لا يجرؤ على العودة الى اليابسة ثانية .

مكتبة الفكر الجديد

كم افقدتنا الحرارةُ الاحساس بالمكان .
انتقل المكان الى الذاكرة .
اصبحنا نعوم في حوض لمكان مؤجل . مكان سيأتي .

اصحاب الخبرة السياسية يفهمون ذلك تماماً . انا أدركه ولكن بطريقة تختلف . تعوزني خبرة السياسيين لكي أوحد شكّي بيقينهم .
يتوهمون ذلك بقناعة المؤمن . لان ايمان السياسي بالمبدأ يوفر عليه خلخلة الحواس التي يفرضها التحديق بجحيم الكائن . ان المبدأ ، لهذا السبب بالذات ، يستحق تضحية من الجميع . اليست هذه اللغة شائعة! . وقاموسها تشذبه مجاهدة السياسي كل يوم ! ألم يكن الوطن كمبدأ ، والارض كمبدأ ، والراية كمبدأ ، والمستقبل كمبدأ ،أعلى شرفاً من هذا القطيع الانساني نصف العاري في ظهيرة الخليقة هذه!! أنا كما ترى متحرجٌ أبداً من تشككي . الاحساس بالمكان يحتاج الى وجدان متورد دائماً .الى حواس تتسامى ، بفعل تماسها وهو في أعلى حالاته طيشاً ، بقشرة المكان حادة الحضور .

يحدث هذا في الماء عادة .
السباحة لا تداعب الجسد ولكن تعيد خلقه .
المكان كذلك . يعيد خلقنا فنستبدل الذاكرة بالمخيلة .
تربة الوطن تخصب الخيال .
الذاكرة تخصبها تربة المنفى .

ما أربكني ، وانا اجتاز البوابة الزجاج ، وقد فُتحت من تلقاء نفسها ، ان الرصيف الذي تلقفني كان ، على ضيقه ، مزحوماً بالحقائب هو الآخر . حقائب تبدو بفعل طياتها المتداخلة ببعضها وألوانها القاتمة وحرارتها الدفينة اشبه بموقد كبير . يأخذ الرصيف والحقائب التي تغطيه

مكتبة الفكر الجديد

هو الآخر . حقائب تبدو بفعل طياتها المتداخلة ببعضها وألوانها القاتمة وحرارتها الدفينة اشبه بموقد كبير . يأخذ الرصيف والحقائب التي تغطيه امتدادين يميناً وشمالاً . ثم يختفيان يميناً وشمالاً من جديد . معهما لا مجال لحضور آخر اكثر تأثيراً واعظم حجماً من حضور الشمس . وقد اصبحت الظهيرة في ذلك الوقت مدينة بحد ذاتها .

لم انتظر طويلاً ، والحق أقول ، حتى احاطني الشاب ضاحكاً داخل البهو بذراعيه وهو يدفع بحقيبتي بين قدمي قائلاً : « هل تصدق كل هذا . حقائب دائماً . . تفضل ايها الأخ » . ودفعني برفق الى الشارع الاسفلتي الذي يلي الرصيف . قال من الافضل لكلينا ان نتجنب الحقائب هذه ونخطو قليلاً الى حيث يمكننا ان نعثر على سيارة من هذه السيارات المخصصة للمدعوين . قال ان بيننا وبين الفندق مسافة ساعة أو اكثر قليلاً . وطمأنني بان السيارة مكيفة الهواء وان قيلولة ربيعية تنتظرني هناك فلا حاجة للاضطراب . ومااضطربت انا ، فقد كانت يده تمسك بيدي بحميمية ايقظت بي شعوراً بالذنب جعلني اضغط على يده بصداقة حقيقية غافلاً ، تماماً ، عن الحالة الوضيعة المحيرة التي كنت فيها .

في الاستدارة الى اليمين ، وما زال الرصيف حقائب متراكمة ، كانت سيارة بيضاء تشبه حمامة تلجأ في الظل ، تقف مفتحة الابواب . اندفع اليها الرجل وانا اتبعه بخطوات المتشكك . لانني ، على ما أظن ، لم ألمح سائقاً بداخلها بل عدداً من الحقائب فتحرجت من ثقة الرجل ومن ثقتي انا ايضاً . لعله شعر بذلك مما جعله يصرخ ملوحاً . قلت له ان ننتظر فهذه السيارة مليئة بالحقائب ولا خيار الا بانتظار سيارة أخرى ؟ الا ان رجلاً ظهر فجأة وتبادلا حواراً هامساً . انسحب الدليل الي مطمئناً بينما اندفع الآخر باتجاه السيارة المشرعة الابواب وأخذ يدفع بداخلها مزيداً من الحقائب .

مكتبة الفكر الجديد

الاتجاه متجاوزين السيارة البيضاء والرجل المنشغل وعربات النقل التي تليها وهي مزحومة بحقائب ذات الوان متقاربة وحجوم متقاربة وبضعة عمال بملابس العمل وقد اثقل حركاتهم وخطواتهم الجهد الذي يبدو من الخارج جهداً عابثاً .

على الرصيف المقابل وقفت شاحنتان وبدأ عمال للتو يحملون حقائب من الرصيف ويقذفون بها في داخلها . ذهب صاحبي ، وقد ترك حقيبتي - كان يحملها طيلة الوقت- الى جانبي ، بأتجاه احدهم . ولم يصلني من همسهم شيء . قال لي بصوت منكسر ولكنه ينطوي على صلابة وقرار احستهما في التو ، بأن الأمر مستعص عليه بفعل مسؤوليته المحدودة . وما علي الا ان احتمل اجراء يعترف هو بوطأته الثقيلة . فالسيارات المتوفرة للمدعوين لم تعد ، بفعل زحمة الحقائب ، تحت خدمة المدعوين . المدعوون مخلوقات عاقلة قادرة على التصرف . فعلي اذن ان اختار بين انتظار لا طائل له او ان ارتمي ، شأن الحقائب ، في واحدة من هذه الشاحنات الصغيرة التي تتوافد دون انقطاع . لم أترك لحظة للتردد . رميت بحقيبتي وتسلقنا معاً .

كانت الطريق للمدينة او للفندق ، في حالة كهذه ، لا تخضع لمقياس الوقت . فالساعة التي أمّلني بها انما خضعت لمقياس الوجدان هي الاخرى .

كنا نجلس ، انا ودليلي المسكين ، على موقد لا على حقائب وفي أتون لا في شاحنة . وكنت أرقب خارجها صفائح المعدن تصر بفعل تطاحنها ببعض على امتداد بصري . الارصفة التي تحيط بالشوارع الكثيرة المتداخلة خارج المطار تشبه ركام ملابس قديمة مستعملة ، أتلف الوانها الجفاف . فالحقائب كانت ملتحمة ببعضها للحد الذي جعل

مكتبة الفكر الجديد

صاحبي يلتفت الي مذعوراً «هل تصدق . هل تصدق كل هذا!!» . وبين الاكوام زرعت هنا وهناك هيئات آدمية فضلت ان تنتظر مستسلمة بفعل حرارة الشمس الى مصيرها ، ملوحة احياناً الى ما يبدو للضال في صحراء الجدب سراباً . لوحتُ لأحدهم تلويحة بدت لي تلويحة تعزية ومواساة فأحجمت عن تكرارها . بدت لنا العاصمة من بعيد وقد انعكست بصورة غامضة مقلوبة على الأفق . . قلت لصاحبي وهو يهتز كقطعة قماش مبلولة دون انفاس : هل ترى معي على مدى البصر في هذه الارض المحيطة العارية من العمران ، العارية من الظل ، المقفرة . . هل ترى معي كل هذه الحقائب ، موزعة كجثث القتلى ، فوق هذا الخلاء اللاهث كالكلب . فوق الرصيف الذي لا ينتهي . وعلى حافة الطريق الاسفلت . . حقائب من كل مكان . اي توقيت هذا! لم يكن صاحبي الموظف المسؤول ليسمعني . لم يكن ليلتفت الي . وان سمع مني شيئاً فحشرجات جردها صوت الشاحنة من معانيها . كان مستغرقاً لا في ذاته . . فظهيرة كهذه كفيلة بالغاء الذات . كان مستغرقاً في لا شيء . في المدى الأجرد الذي لا ينطوي على معنى . وحين توقفت الشاحنة امام بوابة الفندق وانحدرت انا مع حقيبتي الى الارض بقي هو كالمأخوذ داخلها . لم التفت اليه . كنت التفت فقط الى شبح مخلوق آخر ينتظرني داخل الفندق . مخلوق رأى ما رأيت . وسيصغي ، داخل اطار مرآته ، الى حكايتي .

89/7/27

مكتبة الفكر الجديد

محتويات الكتاب

مقدمة ٥

الباب الأول : الخروج

- مدينة النحاس ١٣
- الدعوة ٢٥

الباب الثاني : استعادات

- البرابرة ٣٧
- الباكستاني ٤١
- سقوط ورقة ذابلة ٤٩

مكتبة الفكر الجديد

■ الموت والعذراء ٦٧
■ موت الحصيري ٧٧
■ ملحق -١- ٨٦
■ ملحق -٢- ٨٨

الباب الثالث : العودة

■ الحقائب ٩٣

مكتبة الفكر الجديد

انظر الى وجهي جيداً، وارشف معي هذه الكأس، لتعطي كلينا مزيدا من القدرة : انا على الكلام وانت على الاصغاء.

لا تستشف من كلامي نبرةَ غضب، ولا تجتهد في ان تجعل مما اقول صوتَ احتجاج وصرخة غضب. تخلَّ عن التزوير الذي تطامنا عليه، وحدق في لغة اليأس. ولا تقل لي ان بين لغة اليأس وبين لغة الاحتجاج والرفض صفحة رقيقة. فأنا اعرف معك هذه اللعبة واعرف اننا شاركنا فيها جميعا، واننا موهنا كثيرا على انفسنا وعلى قواميس اللغة ومازلنا: ارضاء لسلطان نطمع في بركته، ولشعب نطمع في غفلته. لان بين لغة اليأس ولغة الاحتجاج والرفض هوة تفصل بين واقعين. ونحن ابناء اليأس نحتج بدافع الخجل ونرفض بدافع الذنب. ثم لا نكتفي بذلك، بل نعيد اللعبة، مستمتعين بالتضحية الروحية وقد لفنا رداء بين طياته.

فوزي كريم

دار المدى للثقافة والنشر

مكتبة الفكر الجديد